ليلة 14 طوبة

عنوان الكتـاب: ليلة 14 طوبة
المـــوضـــــوع: روايـــة
التـأليـــــــف: محمد عبد المقصود
مراجعة لغوية: منشورات الفنار
الإخـراج الفنى: محمود عنتر
تصميم الغـلاف: عبد الله رجب
رقـــم الإيـداع: 1560 / 2021
الترقيم الدولى: 0-189-844-977-987
الناشـــــــر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com

ڤيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى
المدير العام / أ. مصطفى أمين

منشورات الفنار

01013483506
01550102499

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

ليلة 14 طوبة

روايــة

محمد عبد المقصود

إهـــداء

إلى كل من أعطاني ثانية من زمنه،

إلى كل من منحنى فرصة الوجود،

إلى كل من سمح لي باقتحام عالمه،

وإلى زوجتي التي أحيت بداخلي الأمل،

شكرًا لوجودكم.

أول الليلــة

دقت الساعة الثانية عشر صباحًا!

والعقارب تتحرك وتلهث وراء بعضها البعض، فهي لا ترحم دقائق عمرنا، عقارب شديدة الخطورة وترجم شوقنا وتدمر ذكرياتنا نحو روح فارقت عالمنا، خدعة هذا الزمن، أن تنتظر مرور كل الأشياء الصعبة فتجد أن العمر فر منك هاربا لتترك بقاياك مشتتة وأفكارك متهالكة ونمو إحساسك يقف ينتظر من يراوده بنفس الإحساس ويبادله نفس الشعور!

ما عاد كل شيء على وتيرة واحدة، ضياع عنوان قلبك سبب في فقدان شهيتك عن التعبير وسقوط ابتسامتك في كل لحظة ينذر لاقتراب حرب فيها أنت الخاسر!

خسائر الحرب في هذه المرة لم تعد قتلى ولم تعد أشلاء موتى ولم تعد أسرى ولا غنائم، خسائرها غرقك في بحر ظلمات النفاق والسعي وراء الكذب وتوتر ردود فعل قلبك، وتشبع خيالاتك بالفشل دائما!

اترك كل شيء سريعا وراجع حسابات دفترك الخاص واذهب مهرولا إلى أبواب يأتي منها الفرج دون الخوف، اترك الحواديت الضالة حولك واستمع فقط لنفسك وأشعل إضاءة مسرحك من جديد، لتقدم أفضل عرض يحيى لك ويبقى لك،

ولتسمع تصفيقات الكون التي فقدت سماعها أذنك، ولترى الحقيقة بعينيك!

نصطدم أحيانا بمطبات شديدة الخطورة تكاد تدمر حياتنا، دع كل هذا واذهب بقدمك نحو النور الذي يأتي من بعيد، اتخذ قرار السير على الأقدام لتصل الى أركان مخفية عن عينيك، اتخذ قرار النظر بتمعن في هذا الشيء الذي يرهب شعورك ويذل نظرات عينك ويذهب بك بعيدا نحو الهاوية!

استعن بمن لا يخذلك وبمن لا ينتظر منك مقابل، ومن يضعك على سلمة حلمك الأولى ليحققه لك بعد تعب وجهد، استعن بمن لا ينتظر منك ألا الدعاء والحمد، استعن بمن يجبر بخاطرك وبمن هو أقرب اليك من حبل الوريد، ومن لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، استعن بمن لا يضيع صبرك استعن بالله وابدء كل شيء من جديد، ولا تقف ولا تنظر خلفك..

مُر بسلام.. دون كلمة سر.

يراجع الأستاذ (عبده) مقدمة روايته الجديدة وطلب مني انتقاد أي شيء لم يثير إعجابي بعد إنصاتي على ما يلقيه على مسامعي، توقف بعد أنهائه لهذه الكلمات ليأخذ استراحة حتى يكمل لي باقي الرواية...

ليالي الشتاء طويلة وأستاذ (عبده) مغرم بالتأليف ويسعدني دائمًا بقصصه الشيقة التي يمتعني بأحداثها، فأنا من أشد المعجبين بأعماله ليس لأنه صديقي ولكن حروفه تكتب بثقة تامة وبصدق شديد!

كنت أمكث هذه الليلة معه في حجرته المتواضعة، حجرة واحدة على سطوح أحد المنازل، كان يستضيفني بطبيعة كرمه وأخلاقه المتواضعة، كثيرًا ما أثر في قلبي تلك الأحداث التي عاشها وهذه الهموم التي راودته منذ أن بدء رحلة الحياة.

أستاذ (عبده) في أوائل الأربعين من عمره كان يرفض أن ألقبه بالأستاذ، يعلم جيدًا كيف أن المرء يعيش الحياة ببساطة ويبتعد عن التعقيد، يتراكم دائمًا القلق على وجهه ويسعى لإخفائه ببعض الابتسامات، اعتزل التدريس ووهب كل وقته للورقة والقلم، للأحداث الخيالية والواقع الملموس، وهب نفسه لنفسه ليصل لحلمه الذي يعاني من أجله.

اقترابي من سنه يجعلني دائمًا أشعر بكل شيء يلتمسه وجدانه، براعته في إقناعك بالفرج القريب من مميزاته، حتى إن يأسه كان يصنع منه إبداعًا! حجرته تعتبر عالمه الخاص الذي يفكر فيه ويصنع فيه أقمشته الورقية ليخرج كتابًا مميزًا، يجلس فيها وقتما

يشاء بعيدًا عن عائلته التي يسكن معهم في بيتٍ واحد، ثم يعود ثانية لعادات الحياة المتكررة!

حجرته ذات السرير الواحد يمينها وفى منتصفها الشباك الخشبي المقفل دائما وتغطيه ستارة شفافة بيضاء وتحتها مكتبه وكرسيه الخاص وعلى يسار الحجرة منضدة طويلة يمكن أن تحمل ثلاثة أشخاص وإضاءته البيضاء الخافتة ويدعِّمُها بأباجورة على مكتبه تنير له خطوطه التي يرسمها، في أرضية الحجرة بين المنضدة والمكتب هناك (قُلة فخار مخصصة لشرب الماء) وطرابيزة صغيرة يوضع عليها الشاي والسكر والقهوة وجميع المشروبات التي تُشرب ساخنة.

ثبات الإضاءة على أوراق مكتبه تبعث الأمل، ويداعب أفكاره بقلمه ذو اللون الأسود. مر أستاذ (عبده) بعد أن نهض من على مكتبه على قُلة المياه ليتجرع منها شربة تروي نفسه وتقتل عطشه الداخلي.

جلس بجانبي واستأذنني أن أحضِّر كوبين من القهوة المضبوطة لي وله، ليس أمرًا ولكن لحبه الشديد أن يشرب من يدي كوبًا من القهوة، فكان دائم القول:

- يا أخي عليك كوباية قهوة إنما إيه!

بعد ثنائه على صناعة يدي وبما أنني سأراوده ببعض الأسئلة، فبدأت أحضر القهوة وأثناء تحضيري سألته سؤالًا كاد أن يحيرني، أخبرته أنني لم أستطع تحمل كلماتك التي قلتها منذ قليل ولم أتحمل كمية التعبيرات التي أشبعتني بالإفادة، وعند سؤاله قال لي:

- إنك لن تستطيع معي صبرا!

فأجبته:

- وكيف أصبر على ما لم أحط به خبرا؟! ولكن ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصِ لك أمرا.

أحضرت كوبين القهوة وجلست استمع له. حدثني عن تلك الأيام المشرقة التي عاشها بين أحضان التعب، على حد وصفه كان مذاقه رائع جدا، أن تجلس وتبدأ ممارسة الحب مع الورق ومداعبته وفى النهاية ترزق بطفلك الجديد الذي لطالما حلمت أن يخرج للنور، إحساس لا يوصف، وان ترى الجميع يحمل طفلك الذي أتى من وحي خيالك وإبداع قلمك فهذه سكينة أخرى تريح وترضى غرور الشوق للنجاح!

بدأ أستاذ (عبده) بفتح قلبه وأبواب أسراره لأول مرة، يبدو أنه في حالة من الشعور بالوحدة، أحيانا يعيش الفرد منا على

ذكرياتـه وطفولته ويحتـاج لمصل العودة للزمـن الجميل ليكمل طريقه نحو الحروب النفسية المعاصرة!

أكمل اسـتاذى العزيـز وحدثني عن سر كتابتـه لروايته هذه التـي يقصهـا عـليَّ، وعن سـبب حضوره لهـذه الفكـرة الجيدة. أخبرني أنه حتى الآن لم يضع لها عنوان مناسب.

أكمـل أنـه ذات يـوم كان يجلـس مـع أصدقائه مـن الجيران القدامى وأثناء حديثهم عن مغامراتهم التي لم يكن لها حد قال:

– تابعـت الحديـث وأتى الـدور عـليَّ ولم أكن اعلـم أن هذا الحكي الشيق سيجلب لي رواية كاملة.

بينـما ونحن نجلس على هذه المنضدة المحتوية على وسـادتين لسـند الظهـر للخلـف، رفـع قدمه المقتربـة مـن الأرض وأتخذ وضع الكاتب الجالس.. وأخذت نفس وضعية جلسته، وأمرني بالانتباه لحديثه وبدأ يسترسل:

– طلبـوا منـي أن أحكـى مواقـف رأيتهـا وعشـتها لحظـة بلحظـة.. طلبـوا منى أن اسـترجع ذكريات باتت تسـكن قلبي وتضـئ عتمتي في زمنٍ شـحَّت فيـه روائح القديـم وكثرت فيه رائحة المظاهر النتنة!

أمرتهم بالانتباه لي جيدًا وبدأت:

– أرسلتني ذات مرة جدتي إلى البلكونة كي أتأكد لها أن بائع الطماطم لازال واقفًا وأن الخضرة لازالت طازجة. البلكونة بالنسبة لسنى كانت نافذة عالية الجودة، كان حلمًا أن أنظر منها، كانت طويلة فأشبُّ على أطراف قدميَّ كي أفوز بنظرة أوسع! سور البلكونة السحري الذي كان بمثابة صفحة الكشكول الذي أدون عليه ذكرياتي حتى لعبتي المفضلة كانت على حائط هذا السور!

حينها دخلت أمي مقاطعة لخيالاتي وقالت فجأة: ماذا تفعل؟!

استقبلت هذه الجملة بفزع شديد، لم تكن تعلم أنى خطاط ومؤلف ورسام، وأنى أحمل في طياتي فنان قادم ولكن يا قلبي لا تحزن! اندثرت ذاكرتي بعد صراخ أمي في وجهي، وبت أحدق في البلكونات أمامي وأخذت أحدق واحدق حتى غلبني النوم. وقتها كانت جدتي تجلس على سريرها الخشبي أمام البلكونة وقالت بصوت حاد:

– تعالى يا ابني نام هنا بدل البهدلة دي.

انزعجت حينها للمرة الثانية وهرب من عيني النوم واعتبرت مسكني بيت من بيوت الرعب حول العالم، ولم يبقى

لي سوى سور البلكونة صاحبي الذي لا يزعجني ولا يكذب عليّ، صاحبي الذي استند عليه طوال الوقت ولا يملُّ، صاحبي ونافذتي للعالم..

جدتي وحدها كانت تكفي لتطمئنني، تكفي لتشبع رغبات طفولتي، والدة أبي المثابرة على جذع الحياة والحالمة دومًا بجمع شمل أحفادها وأبنائها حولها. اعتبرتُ دومًا سور أحلامي هو ذاك الكراس الذي يمتلئ بالصفحات الفارغة التي أحاول أن أدون عليها ما يحلو لي ولا أمل!

تقلبات الحياة أصعب بكثير من تعلق طفل بسور بلكونتهم، راغبًا الحياة ومستمتعًا بتلك المناظر من بائعي الكرنب والطماطم والفول و(رأفت الحلاق) عندما يفتح باب دكانه بعنف وغضب، و (أبو عباس) عندما يشعل حجر نارجيلته ويصعد الدخان لحجرتي.

ووسط اندهاشي وحيرتي يظهر (حلمي) ذلك الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، قوي البنية، بياض لونه يشع نورًا، قصة شعره أخذت قصة شعر عبد الحليم دربا، لا قصير ولا طويل. سريعٌ في مشيته، بطيءٌ في فكره، سريعٌ في اتخاذ القرارات وعلى عجالة دائمًا، ويملك عجلة زيرو وبلايستيشن وطرابيزة

بينـج، والده ينـوي شراء عربية أحدث موديل لـه.. غريب، إن هذا الشاب يمتلك كل هذا ولم يحنو عليَّ ذات مرَّة بلفة بعجلته أو جيم بلايستيشن أو دعوتي لحضور مباريات كرة البينج!

كان يرغـب (حلمي) دائـمًا في التبذير، يعيش في بيت أهله أو بمعنـى أصـح في بنك أهله الـذي كان بجـوار بلكونتنا ولم يكن يخشى نفاذ المال، لأحدِّث نفسي وأتدبَّر الموقف.

- عنده لعب كتير أوي لازم أصاحبه!

قـرار التدبير في التفكير والاقتراب لمنطقة تريدها يحتاج خطة جيدة وبذل جهد، حلمي كطفل ليس من الأمور السهلة بالنسبة لي إنـما من الأمور الصعبـة والتي من الممكن أن أضحِّي في سـبيلها وفى سبيل الوصول لحلمي وتحقيقه!

- مش نلعب مع بعض بقي؟

- عندك كام سنة عشان تلعب معايا؟!

مـن أشـهر الأسـئلة في ذلـك الوقـت، التحـدث بالسـن، والاعـتراض بالسـن، واللعـب بالسـن، والضحـك بالسـن، والبكاء بالسن، والحب بالسن، كل شيءٍ بالسِّن عدا الموت ليس له سـن، وكأن مقياس الإنسان بسنِّه وليس عقله، أحيانًا يمتلك أولئـك الفاضلين عقولًا هاويةً ولسـان كثير الكلام وسـن أكبر

من (حلمي) بكثير، فمن يولد قبلك بيوم يعلم عنك بسنة، حتى وإن لم يمتلك عقلًا وهذا هو ثوب الحياة الجديد!

شاهدت بعينيَّ طلب (حلمي) من أمه وكان أهل الشارع ينادونها (أم سمير) أعتقد أنها أشد حزمًا وقسوة من (أبو سمير) ترتدي دائمًا جلبابًا طويلًا وطرحة تغطي منتصف جسدها، وبدايتها من أعلى رأسها، ملامح شقائها على أولادها وتربيتها لهم توضح أنها أخذت منها وقد استُهلِكت لامحالة!

الاستهلاك الشرعي لنا كبشر نعيش ونقاوم هو تربية أولادنا وقبلها تربية نفوسنا وقبلها تربية قلوبنا على ألا تحمل مثقال ذرة من الكبر أو الحقد أو الكراهية.

تجرأ (حلمي) وقتها وطلب من والدته أن يتزوج، استمِع جيدا للتحوُّل الكيميائي الغريب الذي سيحدث. صرخت أمه صاحبة الأربعين عامًا، ووجهت له اتهامات يقينية ليس بها شك بالنسبة لكونه عاطل ولا يمتلك عمل ولا يستطيع تحمل المسئولية وحده، الشجاعة لا تكفي أن تقاوم بها الحياة، يتطلب بجانبها الكثير من القدرات التي تساعد على السير دون حفرة تأخذك بقاعها وتفقد بها توازن مسيرتك.. وظهر أنه اعترض على حديثها ولم يكن له شيء أخر.

فعـلًا! المظاهـر دائـمًا خادعة، فلا يشـترط على مـن يضحك أنـه فـرِح ولا على من يلهو أنه سـعيد، اقتربوا مـن الحقيقة لتروا كيف يعيش الناس وسط هذه الحياة المملة بروتينها، اقتربوا أكثر لعلكم ترون بنظرة أوسع هذا الكيان الفاشل من المظاهر الخادعة!

رأيـت مـن بعيـد (أم سـمير) وهـي تبكـي بعـد صدمتها في ابنها، ومن الأكيد أنها تريده في أفضل حال، أتى (سـمير) فجأة وواضـح أنه عائد من العمل، سـأل أمه عما يحـدث فأخبرته، بينما (حلمي) ترك حديثه ودخل غرفته الخاصة!

لم يرضى (سمير) بما حدث وأخبر والدته في سخرية واضحة أن والـده سـبب كل هذا.. لأنـه لم يحمله مسـئولية منذ صغره.. (سـمير) الأخ الأكبر لأربعـة إخوة من بينهـم فتاتين، والاثنتين متزوجتـين، واحـدة تسـكن بعيدًا عـن بيت عائلتهـا والأخرى تزوجت وسـافرت مع زوجها بالخارج. الأخ الأكبر كان يعمل في السعودية لفترة وهناك لم يحدث له أمرٌ جديد وعاد كما ذهب، وتذكـر أنه تعرَّض لحـادث هناك وخـسر كل شيء يمتلكه، فقد مكـث عشرة سـنين وكان مـن المحتمـل أن يصـيروا أحد عشر ولكنه لم يُكمل.

ومن الجهة المقابلة نظرت فوجدت (حلمي) جالسًا يخطط لما

يريد فعله وفى وقت عودة والده من العمل علم بما حدث فاقتحم عليه غرفته بهدوء وسأله عما حدث، ليرويه عليه بالتفصيل..

استوقفني هدوء الأب للحظة، هل هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة أم أنه يقين بفكرة أن (حلمي) كبُر في السن ولابد أن يتزوج ليسعد والده ووالدته وليروا أبناءه؟ سأله والده حينها:

- عايز تتجوز مين؟

- شاهندا بنت فرج الحلواني.

انتظر لحظة.. أستأذنك أن تعطيني القُلة لأشرب منها.

أستاذ (عبده) يريدني أن أتشوق لسماع باقي الحكاية، وبالفعل لم أنجح في إخفاء فضولي نحو قصته الشيقة. أعطيته القُلة ليشرب، وطلبت منه استكمال الحدث سريعا، فأجابني:

- ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا!

استحوذ الصمت عليَّ.. وبدأ العزيز (عبده) استكمال ما حدث:

لطمه الوالد على خده لطمةً عنيفة، فخرج صوتًا رهيبً، وغضبً شديدًا، وانهيار نفس، وشهيقٌ وزفير أشبه بلحظات ما قبل الموت. ماذا فعل الأب بابنه؟! ولماذا؟! لا أدرى لماذا حدث ذلك مع احتمالية أن هناك مشاكل بين عائلة (أبو سمير) و(فرج الحلواني) وهناك سؤال مبهم: من شاهندا؟

جلستُ أترقَّبُ من بلكونتي تحركات (حلمي) بعد الصفعة، فقد هم بالنزول ورأيته حاملًا في يده حبل غليظ ربما تراوده فكرة الانتحار، لكنه نزل الشارع مسرعا وفجأة رأى (شاهندا). وأخيرًا هذه هي الفتاة التي يبتغيها، نحيفة وتملك جسدًا ملهمًا، بيضاء مثله، لها عينٌ خضراء اللون وشعر أشقر يظهر من تحت حجابها، علمت بعدها أنها في السادسة عشر من عمرها، لكن هرموناتها فاقت حدود سنها بكثير! الهدوء فيها طبع وليس مصطنع، عقلها متوازن وليست متهورة، ظهر ذلك من حديثها مع (حلمي)، التقى بها فنسيَ جبال الهم وكان حُلمي أن أرى هذه اللحظة.

تعجبني القصص الرومانسية، أسمعها من جدي والد أبى دائمًا، يستطيع الحب تغطية القبيح وستر العيوب، يستطيع الحب بناء خنادق في النفس لتحارب وتقاوم فيها كل مطب وحفرة، يستطيع الحب إبقاء القلب مستيقظًا آناء الليل وأطراف النهار. عند التقائه بها، نظرَ إليها وقد غلبه الشوق وظل تائهًا في بحور عينيها كالغارق، وأخيرًا اكتشفتُ أن (حلمي) يهرول وراء الجمال ليس شيئًا آخر، خطف بعض النظرات، ولاحظت (شاهندا) الأمر، تعلم أنه يريدها ويحبها، أراد استوقفاها

والحديث معها، رفضت واستمرت في السير إلى بيتها حتى وقف أمامها. اتخذت يمينا فاعترضها، فاتخذت يسارًا فأغلق زاويتها.. أخبرته مُنزعجةً:

- خلاص يا حلمي.. لو حد شافك يحصل مشكلة!

- أنا بحبك يا شاهندا.

اعترف أخيرًا. ولو علم ما سيحدث له بعد ذلك ما اعترف. ابتلعه الشارع واختفى عن نظري، ومن بعيد رأيت (شاهندا) قادمة وفى يدها كيس من الخبز ويداعبها أحد شباب الشارع..

- مساء القشطة.

صدق ولم يكذب. وهي تسرع بخطى ثابتة. اعتقد أنه أحد شباب الشوارع المجاورة. خطف عيني بكاء (أم سمير) وهي تتحدث مع زوجها تعاتبه وتأنب ضميره، فإن علم (حلمي) من صغره قيمة الجنيه وكيف يأتي بصعوبة ما حدث ذلك. حديث الأم دائمًا يكون صحيحًا، لكنها بالتأكيد تريد ابنها في أفضل حال.. دافع (أبو سمير) عن نفسه مفصحا بما في قلبه منذ سنوات، وأنه اهتم بقهوته البلدي التي أنشأها منذ سنين وقد تفرغ للعمل بها حتى يأتي لهم بكل ما يكفيهم ولا يحتاجون لشيء!

والأب بـه آلامٌ موجعـة مما يحدث ولكنه مغلـوب على أمره، فالعمل كان لابد منه حتى يعلوا بمسـتوى معيشتهم، الندم على مـا فات ليس جيدًا، يصنع دائمًا الفراغـات الزمنية، يلوث البيئة الفكريـة لدى الأشـخاص. وندمت (أم سـمير) وأردفت: بماذا يفيد الحال وابننا في هذه الحالة وعاطلًا ولم يكن له مستقبل؟!

تركتـه ورحلت. أخذ يفكر الرجل البالغ من العمر الخامسـة والسـتين، طويل القامة، شـعره أبيـض، لحيته خفيفة وشـعرها ثقيل، شـقاء السـنين يظهر على وجهه. حدَّث نفسـه: هل شقاء كل مـا مـضى هـذه نتيجتـه؟! وكان مشـهور وقتهـا بقوله «فك الكـرب يا رب» وما علمت معنى هذه الكلمة إلا عندما أيقنت أن الله سيحدث بعد ذلك امرأ.

****

ذهبـت وقتهـا للحـمام بعدهـا قالـت لي جدتي أننا سـنحضر الطعـام لتنـاول الغـداء. كنت سـأموت جوعًـا، وسـألتها ماذا سنأكل؟ أجابتني بما أسعد قلبي:

- محشي.

وقعت هذه الجملة على مسـامعي وكأنـك أخبرتني أن مصر صعـدت كأس العـالم مـرة أخـرى. أُعـدت الطبلية المسـتديرة،

وجلس حولها كلًا من عمي، وجدتي، وأبي، وأمي، والفقير إلى الله، ومن المعترف به عند أكل المحشي أن تصاب بحالة من الاندماج اللاإرادي وتصل بك لدرجة أنك لا ترى، لا تسمع، لا تتكلم!

فوجئت لسؤالِ جدتي لعمي عمَّا يحدث عند (أم سمير) لأنها وقتها كانت منشغلة بإعداد الطعام ولم تعلم ماذا حدث؟ (عمي) النحيف والذي يمتلك شعرًا مجعدًا، طول قامته يبلغ مترين، طوله كان يساعده في استقبال جميع الأخبار البعيدة والقريبة بتردُّدٍ جيدٍ جدًا.. بدأ (عمي) بالإفصاح عن الموقف، وحدَّث (جدتي) أن (حلمي) يريد الزواج من (ابنة فرج الحلواني). تفاجأتُ بإجابة جدتي.. أبعد القضية التي دبروها لهم يطلب الزواج من ابنتهم؟!

حمدت الله على هذه الوجبة، وأخذت أفكِّر: أي قضية هذه التي صفع أب ابنه من أجلها؟

فجأة شبَّ صراعٌ بين (مدحت زيتونة) وهو أحد أبناء (أبو عباس) وأوسطهم تقريبًا، ملامحه لم أهتم بها غير أنه من كثرة المشاكل كان وجهه يمتلك علامات كثيرة، مائلٌ لون بشرته للسمار، تعارك معه أحد المارة الذين يشترون منه الحشيش،

وبعد اشتباكات خفيفة وبعض الألفاظ البذيئة الملقاة بشراسة استطاع أهل الشارع فضَّ النزاع وكان الشاب الآخر يتوعد (زيتونة) أنه لن يتركه حتى يأخذ منه ربع الحشيش الذي نصب عليه فيه! صراعاتٌ خاوية على عروشها، أين عقل هذا الشاب الذي يفكر في ربع قطعة حشيش؟!

بدأ تفكيري رويدًا رويدا يصارعني من أجل إيجاد الحقيقة وما باليد حيلة، لم يتركني (أبي) في مرة أن أتوغل في الشارع بمفردي.. أمي كانت خائفة عليَّ.. ليس من حسد أو حقدٍ ولكن حتَّى لا أسمع تلك الألفاظ البذيئة المنتشرة، فأتبعها.. والحمد لله قد سمعتني أمي ذات مرة أتلفظ بتلك الألفاظ التي كانت تخاف منها.. ومن يخاف من العفريت بالطبع سيظهر له! حينها استنكرت أمي تربيتها لي.. وهذا ما نطق به لسان حالها.

أخذت أفكر في قضية (حلمي) كنت مشروع قائد مافيا أو أحد رواد فن التدبير.

نحيت كل شيءٍ جانبًا... نظرت إلى بليتي المفضلة وحن قلبي إلى اللعب وتركت منبر التفكير فيما لا يعنيني، جمعت ما يقرب من مائة بلية وشكلت مثلث بتسعة وتسعون بلية والبلية المائة في يدي كي أصيب بها الأخريات، هممتُ مع التركيز الكامل

وقذفت بليتي حتى اخترقت المثلث وأصابته، وقتها تفرقن وانتشرن خارجه، اندهشتُ كثيرًا وكأني أول مرة أمارس هذه اللعبة، كررت هذه الحركة مرة تلو الأخرى حتى غطى العرق جسدي. تذكرت هذه الحركة وأسلوب التفرقة الذي يأتي من إصابة شيءٍ مهم.. ولا أهم من الاتحاد والقوة.

أن تصيب مجتمع وتنجح في تفرقته شيء صعب ولا يأتي إلا بفيروس خارق قوى يصعب التحكم به ويصعب السيطرة عليه، إما بفيروس التفكير أو بفيروس يصيب ثقافة مجتمع أو فيرس الشك.. وأشياء أخرى تدمر.

عمري أثناء لعبي بالبلي كان تقريبًا أحد عشر عامًا وأدركت حينها الكثير من المعاني التي أخذتني إلى بعيد ولكن بإيجابية. من بعيد (حلمي) قادم يهرول إلى المنزل، رأيته بعد عودتي لسور بلكونتي من جديد، تقريبًا في الثامنة مساءً، استعد عقلي للتركيز وقطعت مشاهدتي لمباريات لعبة النحل التي يمارسونها أطفال شارعنا.. رأيت من باب الشرفة خاصتهم (حلمي) يأتي بحقيبة سوداء ووضع فيها بعض ملابسه وهم بالنزول هاربًا، اعترضه أخوه عندما سمع صوته وهو يقول: سأرحل ولن تعلمون عني شيء، اعترضه (سمير) فصدمه بالحقيبة وأسرع بالنزول نحو

الشـارع الخارجي. صراخ والدته بداية للحرب وبداية لمشـكلة كبـيرة، تطلـب إحضار ابنهـا مرة ثانيـة، لم تريـده أن يبتعد عنها وعن قلبها.. صراخ الأم اسـتغاثة لا يفهمها الكثير، صراخ الأم تعب سـنوات.. ترى ابنها أمـام عينيها يضيع وفى النهاية يذهب والله أعلم هل يعود أم لا؟ وقتها اسـتيقظ (أبو سـمير) من نومه متأثـرًا بالـصراخ، دار بعدهـا حديث بينه وبـين ابنه (سـمير) ولعلِّي وصلت للحقيقة بأكملها.

بـدأ (أبـو سـمير) يتذكـر ويقص عـلى ابنه ما حـدث وكيف تولَّدت مشكلة بين عائلة (فرج الحلواني) وعائلته:

– بعد سفرك وقبل عودتك بفترة قصيرة نظم شباب الشارع رحلـة يومًـا واحـد إلى أحد المدن السـاحلية. ذهـب فيها رجال كبار وشـباب ليقضوا وقتًا ممتعًا، ونويـت الذهاب برفقة أخيك (عادل) وبعد وصولنا بسـاعة أو سـاعتين وأثناء جلوس أخاك معي رأى (أوشه) ابن فرج الحلواني يستعرض قوته ويستعرض سخافته ويسب أحد الشـباب برفقتنا، شاب طيب بطبيعة حاله ولا يعرف للمشاكل دربًا ومن ذوي الاحتياجات الخاصة، رأى أخوك هذا المشـهد ورأى الشـاب لا يسـتطيع أن يصد ما يفعله (أوشـه)، وقتهـا عزم (عـادل) الذهاب (لأوشـة) ليشرح له أن

هـذا خطـأ ولا يجب فعـل ذلك، عـاد أخوك، وكررها (أوشـه) مرة أخرى وأخذ يضايق الشـاب فانفعل وأخذ يصرخ، ولازال مسـتمر (أوشـه) في فعلته، عزم أخـوك الذهاب لـه مرة أخرى والاعتراض على ما يفعله وحذره من تكرار ما يفعل، لم يستوعب هذا الأحمق الأمر وكل فكره ذهب بأن أخاك متعلم وأنه يمارس عليه الغرور، ولم يفكر بنصيحته أن لابد من رعاية ومعاملة هذا الشـاب معاملة خاصة بدلًا من إهانته. تربيتكم باحترام الصغير قبـل الكبـير لابد منها ولابـد من احترام الأصـول واحترام كل مـن يحمل ظروف لم تكن باسـتطاعته، أراد وقتها هذا المختل أن يكمل اسـتعراضه على أخيك ولم يسـتطع فهـم أن الأمر متعلق بالإنسـانية ليس أكثر، حتى حدثت مشـادة بينهم شـديدة القوة فيها تجمعت شـباب وكبار الرحلـة ليهدئوا من الموقف، أخذت أخـاك وابتعدنا لنغلق بابًا قد يفتح على كلتا العائلتين نار جهنم، فاعـتراض أخـوك وقتها على افـتراء ذلك الأحمـق، وعلى فطرته بأن هناك إنسـانية لابد وأن تتواجد بيننا، مر الوقت واسـتمتعنا بقدر استطاعتنا بما تبقى من ساعات قبل الغروب، وحان وقت العودة. صعد الجميع للعربة وجلست بجانب أخيك وبعد فترة من التحرك أتى أوشـه ليعتذر لعادل كـي ترجع المياه صافية كما

كانـت، نظرت لأخوك وأقنعته بالمصافحـة، وقد كانت، وما إن اقتربنـا مـن الوصول حتـى اسـتوقف العربة أحـد الكمائن على الطريـق فيها تم تفتيش العربة بالـركاب واحدًا تلو الآخر وأتى الدور على أخيك (عادل) اقترب (أوشـه) من الضابط المسؤول ولا أعلـم ماذا قال له، ولكن وقتها رأيت الضابط ذهب بنفسـه ليفتش عادل واستخرج من جيب سرواله قطعة حشيش وكانت الصدمـة، أمر الضابط برحيل الجميع وتـرك (عادل)، عدنا ولا أعلـم مـاذا يحدث مـن الصدمـة حتى حركـة (أوشـه) لم ادعها في حسـباني غـير أن أخوك عُـرض على النيابة بعدهـا. تحدد يوم لجلسـة الحكم وأحضرنـا محاميًا وبدا الأمر مسـتحيلًا فقد حكم على (عادل) بعشرة سـنوات سـجن، وقتها أحسسـتُ أن الدنيا أظلمـت في وجهي ومرت الأيام حتى علمنا من بعض أصدقاء (أوشـه) المقربين والذي فعل معه حماقته المعروفة، بأنه قد وضع أثناء مصافحته لعادل في العربة قطعة حشـيش في سرواله، وهو الذي أبلغ الضابط أن لديه شيء ممنوع في جيبه الخاص.

لم يعلم (سـمير) هذه الحقيقة كاملة قبل ذلك وأمره والده أن يلتزم الهدوء ولا يفعل شيء يجلب لهم المتاعب من جديد. حيرة الأب تقتل وجدانه وأسلوبه في التفكير!

ملعونـة تلك الشرفـة بزواياها وشـبابيكها المفتوحة، ملعونة لرؤيتنا أشـياء من خلالها تكشـف أسرارًا ونقـاط ضعفٍ تطيح بالحيـاة نحو الكآبة واليأس.. انفض الاجتماع وفى انتظار الجديد والأم لا زالـت في غيبوبة الفكر.. أين ذهب ابنها؟ هل هو بخير أم لا؟!

تنادي على زوجها ومن الواضح أنها تريده في شيءٍ ضروري. وقتها تقترب السـاعة من الثانية عشر صباحًا، ولم يعد (حلمي) حتـى الآن. لفت انتباههم تركيـزي معهم من شُرفتنا ولكنهم لم يظنوا أنني في يومٍ ما سأتذكر كل شيء، وأني سأضع أنفي في كل شيء..

تحدثت (أم سـمير) بعاطفتها كأم، ومن الأكيد أنها علمت بما حدث لابنها المسجون وتعلم تمامًا أن قلبها حزن عليه بشدة فلا تريد خسـارة جميع أبنائها بفـيروس عائلة واحدة، واتخذت قرار صعب للغاية وأمرت زوجها بالبحث عنه، وتزويجه من يحبها!

قلب الأم دائمًا ما يعطف على أبنائها وإن كانوا قاسيين، يعلم الله أنها من الأكيد تحدثت بينها وبين نفسـها.. ماذا سـتفعل بعد خروج ابنها من السـجن وعلمه بأنهم زوجوا أخيه لأخت أحد الذين دبروا لسجنه؟ لكنها في مفترق الطريق. (أبو سمير) تقريبًا

كان ينتظـر هـذه الفكرة لتكون له طوق النجـاة، ومن الأكيد أن فكره قد انشـغل بنفس السؤال الذي شـغل زوجته. وبعد اتخاذ القرار ومشورة بعضهم، حتما سيُنفذ.

طبيعـيٌّ، إن قلب الأب حزين على ضياع مسـتقبل ابنه الذي يطمـح في الدفـاع عن الحـق دائمًا والـذي يخطط ليصبـح قاضيًا ليحكم بالعدل في أشـياءٍ فقد العدل فيها مصداقيته، حزين على ابنه المحارب والمتصدي لكل خطأ ولكل ظالم، فلمجرَّد غيرتهم منه، انتقموا من إنصافه للحق ودفاعه عن الإنسـانية، وبدلًا من كل هذا سيصبح صبي في قهوة أبيه.

حـاضر.. كلمة قرر (أبو سـمير) أن يخرجها مـن فمه، أحيانًا تخرج من هزيمة نفسية أو حيرة عقلية، قد تؤدى بالإصابة بشلل في الفكر.. حاضر، أحيانًا ما تريح ولكن يدفع ثمنها الكثير.

انتهت الأحاديث الصارمة والقرارات العليا..

وأخـذ فريـق البحث المكون من (أبو سـمير) وابنه (سـمير) فى البحـث. أردت حينهـا الدخـول للنوم لأن الموضـوع لم يعد لـه نهاية. وفى صبـاح اليوم التـالى، تهاني عـودة (حلمى) ملأت الشارع، والسؤال هنا: اين كان حلمى؟ انتشرت الإشاعات فى أرجاء الشارع. ملعونة تلك الشوارع التى تنتشر فيها إشاعات مبهمة.

هنـاك مـن قال إنه في قسـم الشرطـة وهناك من قـال إنه كان سـينتحر غرقًـا وأنقذوه فى اللحظات الأخـيرة، والمصيبة الأكبر أن هنـاك من قال إنهم وجدوه فى الحمام. تتبعت كاميرتي الخاصة الاجتـماع العاجل السريع بعيني المعمصة، فقد اسـتيقظت دون أن أغسـل وجهي بالماء، الاجتماع الطارئ لأم سمير وأبو سمير وسمير وحلمي وفاجأ (أبو سمير) ابنه بقراره النهائي..

- هنجوزك شاهندا.

(حلمي) لم يصدق ما سـمع، الدهشة استحوذت على عقله، الأم خطف عينيها بريق عيون ابنها ونطق لسان حالها بتهنئة ابنها مقدمًا. أمر (أبو سـمير) ابنه الأكـبر أن يذهب ويأخذ ميعاد من (فرج الحلوانى) ويستحسن أن يكون يوم الخميس بعد المغرب، حتى يتفقوا على كل شيء.

لا أعلـم لمـاذا الخميس كان يوم الاحتفـالات عادة ولا اعلم لماذا هو يوم الأكلات العائلية الشـهية ولا أعلم لماذا لم اذهب إلى المدرسة، لعل اليوم هناك مناسبة رسمية!

منتصف الليلة

الليلة لازالت طويلة ونحن بصدد تطور ليس له نهاية.

- ألا تريد ان تشرب الكركديه الساخن يا صديقى؟!

- بالطبع اريد ولكن اندمجت لحكاياتك.

أستاذ (عبده) يريد شرب الكركديه الساخن.. برودة الجو والشتاء القارص لم أتحسسه بعد بسبب حرارة ودفء الحكاية، أجلس بانتباه شديد، تركني وحدي وذهب لمكتبه، وجلس استاذ (عبده) على كرسيه الخاص وأشعل سيجارة ومن الواضح أنه سيشعل جميع المواضيع حتما.

بدأت بتحضير المشروب، وفى هذه المرة حدثنى بغتة:

- أتعلم يا صديقي لماذا أحكي لك سبب إتيانى بفكرة روايتى الجديدة؟

- لماذا؟

- لأنك الوحيد الذي ستصدق كل شيء وعن ثقة، فهناك بعض الأحداث التى لن يستوعبها العقل أبدًا.

حدثته حينها بصراحة تامة ودون مجاملة:

- وما الشيء الذي نطقت به يا عبده يخرج عن حدود العقل والتفكير؟

وقتها كنت أحمل كوبه، فوضعته أمامه على المكتب، وآخر لي

أخذته وجلست على منضدتي لنكمل حديثنا.. أجابني حينها:

– لم أقل شيئا يخرج عن التصديق إطلاقًا ولكن من الأكيد أنك ستسمع ما يدهشك.

كلٌّ منا نال حصته من الكركديه الساخن، وبدأ أستاذ (عبده) الحديث مرة أخرى وأكمل لأنه من الواضح أن نفسه تعيش شغف معرفة باقي الحكاية، وبدأها:

انتهت خطبة الجمعة، بعدها ذهبت أنا وأبي إلى البيت، (أبي) ذلك الرجل الذى لن تكفينى صفحات كتب العالم لأصف طيبته وخوفه على، والدي كان قصير القامة بعض الشئ، يمتلك شاربًا رائعًا، طيبته ظاهرة وتميز وجهه، ومعبرة عن رضا الله عنه، وأثناء عودتنا من مسجد (الرحمن) الشهير بالمنطقة إلى منزلنا، رأيت كثيرًا من الشباب الذين يلعبون الكرة، وآخرون يمزحون بالنكات المضحكة وغيرهم من يرتدون عائدين إلى منازلهم للقيلولة. تجمعات العائلات دائما ما كانت تحلو فى ذلك اليوم، فمنهم من يذهب للحدائق العامة وآخرون يذهبون لزيارة أقاربهم عن قناعة دون الهروب أو الاختباء فى ثوب.. مشغولون جدا.

رائحة زيت الطعمية المتصاعد من دخان تسويتها، وفول

(أبـو لومة) الشـهير وشرائح البطاطس الشـيبسي، كل هذا كان زينة هذا اليوم.. وقبل الصلاة وجبة إفطار مميزة.

هذا فى كفة وحده، أما عن الخبز البلدي فهو فى كفة أخرى.، خبـز يتمتع بالطعم الشـهي ويشـبه الطبـق الطائر سـعره وقتها يبلغ عـشرة قروش، وقتها الجنيه الواحد له قيمته، وعن الثلاث جنيهـات كانت كافية لافطارعائلة بأكملها.. الخمسـون قرشًـا مصروف يوم الجمعة. وعن باقي الأيام فتصبح ثرى بحصولك عـلى جنيـه كامل وأنت ذاهب للمدرسـة.. أتذكـر أن هذا اليوم مـا كانت لتتغير بركته لمجرد تغـير عملات دولته أو لتغير تفكير شبابه أو لمجرد تغيير تلك الأسعار لاسعار أعلى قيمة. بركة هذا اليـوم بعد تفكير عميق لم تتغير، نحـن من نتغير وليس للأفضل بل للأسـوأ.. فلا نسـتطيع تغيير نفوسنا ولم نسـتطع تزكيتها من السوء.

بعدهـا ذهبت لتأدية واجبى نحو أمـي، وهنا أقف، (أمي) لم تعد أنانية قط، حفاظها وخوفها الزائد من غدر الزمان كاد يقتل أحساسها بالفرحة، أمي التى لطالما دعوت لها بالصحة والعافية، رداؤها الفضفاض وحجابها الذي يزينها وقمحية بشرتها، سـببًا فى حب والدي لها.

ذهبت وقد احضرت لها عشرة أرغفة من الخبز، وقتها هدانى الله إلى طريق المذاكرة وإنهاء واجباتى المدرسية، وبعدها ذهبت لمنفذ روايتي.. بلكونتي الخاصة، البلكونة.. عظيم هذا الاختراع المثمر..

رأيت من بعيد (سيد).. شاب فى العشرين من عمره، لديه أختين فقط، وهو أول أحفاد عائلة (البورسعيدى)، طويل القامة، أسمر اللون، تظهر عليه دائمًا علامات الإرهاق، كان يعمل تقريبًا مكوجي، يتصدى دائمًا للظلم والافتراء، لعله بالنسبة لي شخصية قوية. نفقد هذه الأيام تلك الصفات البطولية المدافعة عن الحق ولا تلحق الأذى بأحد. يهرول بعض الشيء متجهًا لمنزلهم، يبعد عن منزلنا خمسة وعشرون مترًا تقريبًا، ومع برجله الواسع وخطوته طويلة المدى، يمكن أن تختصر المسافة إلى خمسة أمتار فقط.

أسرع فجأة فى خطواته حتى بلغ منزلهم، السرعة المفرطة هنا إما لخبرٍ حزين أو لخبرٍ سعيد. وقتها خرج من منزلهم (ياسر) وشهرته (مصاصة).. عمره لا يدل على صغر سنه، ذهنه حاضر، عمله مع والده علمه تحمل المسئولية ولكنه يحمل بداخله قطعة من روح طفولته الصعبة..

كلٌّ منا لـه لحظاتـه التى يعيشـها خـارج عمره، تبـدو طفلًا فتجبر على تحمل المسئولية بحدوث أمرٍ صعب ويصعب تحمله، أو تبدو محبًّا فتُكره عندما لا تسـتطيع رؤية، وإحسـاس، وتبادل نفـس الشـعور، أو يمكـن أن تكـون كاتبًا فتخدعك السـطور، وتُكذِّبك الحروف، ويَصُدقك القلم.

ولما رأى (مصاصة) صديقه (سـيد) لحق به، وأراد أن يطمئن ولكنـه علـم بـكل شيء من ملامح هرولة (سـيد) ومـن الأكيد أن الخـبر ليس سـارًا، أكملوا طريقهم واختفـوا فى لحظة بداخل البيـت، وقتهـا خرجـت (أم عباس) مـن منزلنا، فهـى تقطن فى الدور الأول، خرجت تلقي بماء غسـيل الملابس فى الشـارع، في لحظتها خرج أيضًا (عم طالب) ولولا ستر الله لانزلق على ظهره بسبب الماء الملقى والممتلئ بالصابون مختلطًا بتراب الشارع الذى كون طين، فينزلق انزلاقة طين!

اعـترض (عم طالب) لأنها تقوم بهـذه الفعلة دومًا، وفى مرة مـن المـرات حتمًا سـتكون الملاهي وجميـع الألعـاب الهوائية من نصيبـه، وكأي سوفسـطائية، تعـترض (أم عباس) بأنها تغسـل غسيلها ولا أحد من حقه التدخل فى خصوصيتها، حينها بدأت الأصوات تعلو شـيئًا فشـيئًا حتى خرجت أم فلان من بلكونتها

وأم علان من مطبخها مستمتعين بما يحدث، وغيرهم من أراد الصالح وامتزج حديثهم بـ "المعلش"!

كلمة (معلش) فى قديم الأزل تستخدم لترضي الجميع ولها مفعول السحر، حاليًا لا تثمن ولا تغني من جوع، لكنها تسكن شر هرمونات البشر. سريعًا انفض الشغب وعادت كل امرأة لمطبخها وأخرى لغسيلها وأخرى للقيلولة وآخرين للنميمة. و(أم عباس) عادت من جديد لعالمها الذي دائمًا ما تقتنع أن هناك من يحسدها هي وأبنائها، وأن هناك من ينفذ ضدها أعمالًا سفلية بينما وهي تربط كل حدث بهذه الأشياء والتخاريف، يلقنها الله درسًا لا مثيل له!

كثيرا يعيش ويقصد ويتعمد ان يعيش تحت مظلة الجهل ولا يريد تغيير نفسه، لعل هؤلاء لا يمتلكون قناعة ورضا نفسي، واظن ان الله لا يرضى عنهم، لكنه لن يتركهم فى بحر الظلمات كثيرا، فسيتوب عليهم ولو بعد حين..

سرح (عم طالب) مع نفسه وأكمل همهمته، فلا تفهم شيء.. غالبا لازال معترض على حديث (أم عباس) يهيئ له دائما انه لابد من الانتقام وانه لم يسترد حقه كاملا، يعمل في تجارة الجملة على تروسيكله الخاص، متسلط جدا، كثير الشكوى، دائما ما

يسخط على كل شيء وفى النهاية لا ينال إلا نصيبه من القدر..

شعره الأبيض وذقنه وشاربه ورموشه البيضاء دليل على استيعابه الكثير في الحياة، وغالبا لم يتعلم شيء من خبرته وكونه كان يعمل مديرا لأحد مصانع الأغذية وضبط متلبسا بسرقة عشرة آلاف جنيه من خزينة المصنع، ليته لم يسرق وليته لم ينفذ خطط وسوسة الشيطان، لولا ذلك وفى نهاية خدمته وخروجه على المعاش كان سيحصل على مكافأة نهاية الخدمة، ومبلغا يقدر بأكثر من خمسون ألف جنيه أو يزيد، ابنه (مصاصة) أخذ من سماته الكثير، وابنه الأكبر عكس صفاته تماما، كثير الحمد، راضي بما أعطاه الله، وغناه في قلبه ...

خطف عيني من بعيد جلوس (سيد) القرفصاء على باب منزلهم، بعد أن تركه (مصاصة)، وضع يده على رأسه شيء مؤسف، حتى (مصاصة) ذهب هو الآخر وجلس أمام منزلهم، بالمناسبة ... هو أصغر أبناء (عم طالب) ... فجأة أتى له صديقه (بوش)، صاحب المصلحة وصاحب السيجارة وصاحب المزاج، وصديق مخلص لقطعة الحشيش، يترنح في مشيته دائما، سيء السمعة، إتيانه هذه المرة لغرض ما وغالبا قد يكون فيض حنينه قد حضر وبعد سؤاله على صحة صديقه واندهاش

(مصاصة) لكونه أول مرة يبدأ حديثه بالسؤال عن الحال!!

نطق لسان حال (مصاصة): الحمد لله.

زيل (بوش) لم يستقم أبدا، بعدها سأل عن قطعة حشيش يبدأ بها يومه من اجل التركيز واستكمال أحداثه اليومية، مصاصة كان على وشك النهوض للعراك معه، لكنه اكتفى بأن ينذره انهم ليسوا بحال جيد لهذه الأحاديث، وان الوقت ليس مناسب لسؤاله هذا، وواجهه (مصاصة) بالحقيقة وأخبره أن (أبو سيد) مريض جدا وواضح انه يحتضر، استقبل (بوش) الخبر بطريقة (كلنا لها) ولازالت ردود أفعاله توضح سمعته السيئة..

الإحساس نعمة عظيمة جدا، كثيرا ما يحتاج الإنسان فيضا من الإحساس أكثر من الوقاحة والتطفل وأكثر من الشجاعة المفرطة أو ربما يحتاج أن يستيقظ من غفلته وسيطرة المخدرات على عقله ...

جلس (بوش) بجانب (مصاصة) يفكر في مصلحة جديدة أو ربما يلتقي بأحد المعارف، استكملوا حديثهم بينما أتى بموتوسيكله الخاص (شريف وزة) وسيره بالموتوسيكل بطريقة جنونية عرضت حياته قبل ذلك للخطر، فعلى طريقا عام اصطدمت به سيارة أثناء سرعته المهولة فأنزلق على أسفلت

الطريق ليصاب بكسر في القدم وفى ذراعه وكتفه، وليته استفاد مما حدث، فعاد الكرة مرة أخرى، ولابد من ستر الله في حياتنا حتى لا نفضح، ولابد من معية الله حتى لا نضيع في غيابة الجب ...

أبيه عم (عبد القادر وزة) الرجل الذي يرتدى الجلباب الفضفاض دائما، الرجل المرتدي للحذاء البنى دائما، الرجل الذي لم يسعى لتحقيق حلم ابنه (شريف) كلاعب كرة قدم، ظل يحلم بها طيلة حياته، حتى أثناء جلسته مع أصحاب السيجارة المميزين، وتناوله للحشيش، يتخيل الملعب وسيره بالكرة نحو شباك المنافس وتسجيله لهدف في الدقائق الأخيرة.. عقله الباطن يعمل باجتهاد ...

صافح (شريف) كلا من مصاصة وبوش، وكان يتميز بقوة دفع رباعي في مصافحته، فتصاب بالشلل وقتها أو تتشاجر معه نتيجة لمصافحته القوية، وبالفعل بوش أراد التشاجر مع شريف ومن الواضح انهم متشاجرين قبل ذلك أيضا وان كلا منهم يحمل للآخر الكثير وكلا منهم لم يتحمل الآخر. مصاصة بينهم لايزال محافظا على هدوئه وعلى رونق بعض الانفاس التى تدخل وتخرج بصعوبة. تتابع من بعيد واقتربت من المرور بهم الانسة (شادية) أخت شريف وزة لكنها كانت (بطة). مرت وخطفت

قلب بـوش الى عالمها الخاص، وقد لاحظ شريف النظرة المبهرة من صديقه!

طالت نظرة المحب ودار حديث في مخيلته، لعلها وصلت إليه بنظراته لها، والعين تفضـح المحب دائما، وناره تفضح الكاذب، و(شريـف) قـد يفضـح (بـوش) حتى إنـه نبذه واعـترض على نظراته الغير سوية، وقتها بعث لأخته برقية لمرورها ببطء: امشي شوية يا بنت الكلب!

صـوت (شـادية) يوما مـا كنت أسـمعه، صوت الاسـتغاثة والـضرب كان يمر بأذني دائما، (شريف) يوميـا يعطيها حصتها من قوة الدفع الرباعي لديه. اسـتمرت (شـادية) في السير حتى اقتحمـت منزلهـم بضيـق ومـن ناحية أخـرى تشـاجر (شريف وبوش) في ركن من أركان الشارع، الأمور هذه المرة حادة جدا، اعتراض شريف تطبيقا للأصول وفى محله إما بوش أدرك حينها أن المرة القادمة سينزل عليها صديقه غضبا شديدا، وهذا بعد أن وضح له أن يدخل البيت من بابه، وهذا آخر إنذار!

صراخ عـالي جدا تغلغـل الموقف وفى أعماق أذن الجميع بات مؤثـرا، يبـدو انه أتـى من منـزل (محفـوظ البورسـعيدي) والد (سـيد) هرول (مصاصـة) ومن ورائه (شريـف) وتبعه (بوش)

تجاه منزل (سيد)، جدتي جاورتني هي وأمي في البلكونة وأم سمير تترك حفيدها الصغير يبكي، (كريم) وأمه، جيراننا يخرجون للمشاهدة، وأبو عوض جارنا بالطابق السفلى وعائلته المكونة من ثمانية أفراد يتناوبون المشاهدة للاطلاع، ومن بعيد (سمير) يظهر مذعورًا ظن أن والدته أصابها سوء، وأم عباس نسيت وخرجت الشارع بدون شبشبها، كل هذا فى وقت واحد وصوت من بعيد.. محفوظ البورسعيدى مات!

يميز هذه المنطقة أن الحزن إذا طرق بابا من الأبواب يصاب الجميع، وأن الفرح إذا انبعث فى الأركان اسعد الجميع. لا أحب الصراخ ولا البكاء، قلبي عند سماعهم ينقبض، عند كل آهةٍ تصدر من بعيد عقلي يتشتت، أدركت وقتها أن الدنيا ثانية واحدة إما أن تستغلها أو تستغلك وإما أن تفوز فيها برضا الله أو تتركها وتقول رب ارجعون.. وفى النهاية الكل لله وإنا إليه راجعون.

استعدوا رجال المنطقة للوقوف على غسل (أبو سيد) أتى الشيخ عادل ليشرف على غسله، ولم أعلم ماذا حدث بداخل المنزل وقتها، شيخ الشارع بركة تحل علينا، البسملة التي يخرجها في بداية كل شيء تدعو للطمأنينة، ذهبت جدتي الى هناك لتواسي زوجة (محفوظ) وأولاده، ورافقتها أمي، وصوني وقتها أن

اجلس مع جدي لأرعاه في فترة قيامهم بواجب العزاء.

مفهوم الحرية بالنسبة لي، يعنى الانطلاق دون رقابة أحد، أو أن تفعل كل ما يحلو لك، الأمر معي لم يكن بالسهولة المطلوبة ولم يكن ذا صلة بأي شيء غير أنى تمنيت أن أبلغ سن الرشد لكي أتخذ قراري بنفسي. بعدها وبعد اكتشافك لأشياء كثيرة، تتمنى ولو يوم واحد تعود فيه صغيرًا، تتمنى أن تعود ليوم لم يشغل بالك مسئولية أو التزام، تتمنى أن تعود صغيرا كي تصبح في عيون الناس ذاك الطفل المدلل، جميل الضحكة، طيب القلب، من وقتها صورتي وانا صغير لم تفارق ذهني ...

حان موعد أذان العصر. أنتظر في بلكونتي كي أشاهد المشهد الأخير في حياة أبو سيد، خرج نعش المتوفي وسط صراخ أهله وبكائهم، خرج محمولًا على الأعناق خرج وكل الخلق تشاهد مشهد الرحيل الذي كتب لكل واحدا منا، زوجته لا حول لها ولا قوة قلبها حزين وروحها تكاد تذهب معه إلى حيث ذهب، وعن ابنته التي بكت وانهارت وانهمرت عيناها بالدموع ولم تجف للحظة واحدة، والدته المرأة العجوز المسن البالغ عمرها خمسة وسبعون عاما لازالت مشاعرها حية وقلبها لابنها الراحل قد انفطر، وعقلها يتمنى أن يلحق به فلا تتركه وحده..

مشـهد يعجز اللسـان عن وصفـه ويعجز القلـم عن سرده، انحرفت الجنازة في آخر الشارع تاركة وراءها في نفسي أثرًا كبيرًا، تاركـة وراءها تسـاؤلات تاركـة وراءها صمـت يرهب جفون العين ويشـتت أوردة الدم، تعلمت من بلكونتنا أن الحقيقة لابد وأن تظهـر ولـو بعد حين. انتظرت مع جـدي حتى عودتهم ويا له من انتظار شـيق، جدي البالغ من العمر اثنين وسـبعين عامًا، الرجل الذى يملك نصائح جيدة، وحديث قيم وأسـلوب رائع في الإقناع، الرجل الذى خدم في القوات المسـلحة، وبعد تأديته للخدمة تزوج جدتي وبعدما رزقه الله بأربعة أبناء تعرض لحادث أصيب فيه بشـلل نصفي، من بعدها عانى كثيرًا، عصبية مفرطة ولا يطيق سـماع الـكلام الكثـير، كان كثير البصق عـلى الرئيس المخلوع عند مشاهدته، كاره لرئيس مجلس الشعب وقتها، وكل مـرة يراه فيها يبصـق عليه هو الآخر، أهـلاوي متعصب، يحب الشـعراوي وحديثه الهادئ، يعشـق الطعمية الساخنة ولا يحب العجـين الزائد في رغيف العيش، يغضـب على تصرفات جدتي فيزيـح لها طاولة الأكواب الزجاجيـة أرضا، هي الأخرى نالت حصتها من البصق، تحملته كثيرا.

مصـدر السـعادة بالنسـبة إليّ، فحديـث الجد مـع حفيده من

الأمـور الواجـب الاهتـمام بهـا، كان يحبني كثـيرا، كان عكازي الـذي أتكئ عليـه وقت حزني وكسرتي، لقربه مـن قلبي، أتذكر انه في مرة من المرات تشـاجر مع والدتي لأنها نالت منى في أحد أركان حجرتنا وأخذت تضربني، سـلاحها المفضل (الشبشـب أبـو صباع)، وعند سـماعه بكائي حذر والدتي مـن الاقتراب لي مـرة ثانيـة والا ضربها، كان حاد بطريقـة جنونية ووالدتي كانت تتجنبه لأنها تعلم انه قادر على فعل مالا يتخيله عقل.

دائـما مـا ينصحنـي بـأن أختـار أصدقائـي الأجـود منـى والأفضـل، حنى أتعلم منهـم فأرتفع الى مكانتهـم، حذرني من تدخين السجائر، حذرني من ترك طموحي يغرق وحده في بحر اليأس، يتشـاجر مع والدي عندما يهددني بالعقاب إذا ما لم أنتبه لدراسـتي، نصيحته دائمًا: من يأكل على ضرسه ينفع نفسه. لكنه كان يشد عضدي بالنصيحة التي توقظني من تخديري ومن نومة أهل الكهف التي كانت تصيبني.

أخـاف عـلى حبه فأنفذ لـه كل ما يقول حتـى لا يغضب مني وأبـدى لي نصيحته القيمة (نصيبـك هايصيبك). خطفت نظرة سريعـة مـن البلكونـة لأطمئـن عـلى أحـوال المنطقـة وحتى لا يفوتني شيء لأري الشـارع فارغا، ولكن يبدو (أبو سـمير) من

بعيد متعبا، وليس ذلك وقت عودته من العمل، صعد سلمهم وهو يقول (فك الكرب يا رب). ذهبت لأجلس مع جدي ثانية وجلست أذاكر حوالي نصف ساعة وبتركيز، أحبه كثيرا.. حب شخص معين يمكن أن يغير حياتك للأفضل وحب الله ورسوله خير وأبقى، خلق الله في قلوبنا الحب والرحمة لتصفو الحياة وجعل الله في قلوبنا الحب لنشتاق للأحباب.

صراخ يزداد ويزداد.. صراخ أصاب كل الأرجاء..

فزعت وأسرعت للبلكونة وجدت أخت (سيد) مغشيا عليها وأمها تصرخ، عادوا من الدفنة وكأن شيء آخر قد حدث، ولا يبدو شيئًا ظاهرًا. جدتي هي الأخرى وأمي عائدتين وعيونهم ممتلئة بالدموع، (أم عباس) تصرخ، وقتها (سنبل) ابن أم عباس صرخ قالا: سيد مات وحصّل أبوه!

توقف الزمن وقتها، سكتة قلبية أصابت الزمن وتوقف النبض، قشعريرة انتابتني، وبكيت ولا أدري. تعالت أصوات الصراخ واستحوذ السواد والكآبة على الحالة. صديقه (سنبل) لم يكن يصدق خبر وفاته، فأخذ يرددها كثيرًا كأنه أصيب بالجنون، ابن أم عباس يصيح كالتائه ولأول مرة كنت أراه في هذه الحالة، دائما ما كان يضحك ودائما يهرب من تحمل أشياء قد تحدث به

الأذى، جسده الصغير دليل على شدة براعته في تحمل كل شيء عدا العمل، قصر قامته تخدع الجميع في عمره الافتراضي. خرج (رضا ابن الزناتي) هو الآخر من منزلهم يبكي بشدة كطفل صغير يبحث عن أمه ولا يجدها، والصديق المقرب (سيد) وصاحبه وظله ومكمن أسراره.. ودع صاحب السر المنطقة وأصدقائه وأمه وركب مع أبيه قطار الرحلة الأخير، متجهين لخالقهم بنفس مطمئنة، عائدة الى ربها راضيه مرضية، صعدت جدتي وأمي وعيونهم حمراء من البكاء، علامات التعجب تملأ ملامح تجاعيد وجه جدتي وأعماق أعين أمي، فالأب والابن صعدا الى سماء الله والزوجة والأختين لهم من لا يغفل ولا ينام.

فالقدر نافذ لا محاله ولا يستطيع أحد منا تأجيله، صدمتي التي تعرضت لها منذ صغرى أثرت على، صدمة الصراخ والبكاء. عند سماعهم أترجم أن هناك مصيبة كبيرة. غريبة تلك اللحظات التي أثرت في وجداني، وأثرت في نفوس شباب المنطقة لفترة كبيرة، فهناك بعض الشباب من بدء اللجوء الى الله ذهابا الى المسجد للصلاة وللتقرب إليه، ومنهم من أكمل على طريق الغفلة ولا زال يكمل في اتجاهه الشريد!

موت (سيد) حادثة مروعة، حيث أثناء قيادته الموتوسيكل

والعـودة من دفنة أبيه اصطدم بسـيارة جعلته ينحرف لتدهسـه عربـة أخـرى، هكـذا وصفـت جـدتي الحادثـة بعـد أن علمت الحقيقـة من أمـه والأمر يصعـب وصفه أكثر مـن ذلك. توقف أستاذ (عبده) لبرهه، يزيل فيها دموع ذكرياته ويعيد ترتيب نفسه ورونق أسـلوبه من جديد، لعله تأثّر بالفعـل بما حدث، ولعلها قصـة بالفعل أثـرت في وجدانـه، ولعل قلبي لا يـزال يعيش في ربوع الحياة وحيدًا ينتظر الشفقة، وبينما الصمت يستحوذ علينا، أشفق عليَّ صديقي العزيز (عبده) وحدثني وسألني:

– هل الحياة ظلت متوقفة؟

إجابتي كانت صريحة جدا:

– لا تتوقـف الحيـاة إلا دقيقـة حـداد واحدة وتعود مـرة أخرى لدقائقها المعهودة.

استكمل بعدها أستاذ (عبده) قائلا:

بالفعل عادت الدنيا لطبيعتها، وكأن الرسائل التي تصل إلينا قيمتهـا لحظات وعدم الاهتمام ندمه سـنين أو أعـمار أو أحلام! الجانـب الآخـر مـن المنطقـة كان يحـوي الكثـير مـن الحكايات والذكريات، من ضمنهـا بقالة (أم عفاف) المرأة التي تحمل على عاتقهـا أربعة فتيات، اثنتين منهـن في المرحلة الابتدائية وواحدة

متزوجة وبعيدة عن مسكن والدتها، والكبيرة (عفاف) وتبلغ من العمر ثلاثون عاما، ولم تفكر في الزواج، ولم يتقدم لها أحد أطلاقا على الرغم من كونها فتاة بمائة رجل. رحل (أبو عفاف) إثر أزمه قلبية وعمره خمسة وأربعين عاما، رحل وترك لزوجته محل البقالة يعتمدون عليه في حياتهم، ومنزلهم المكون من طابقين هو مأواهم الوحيد، عمله الوحيد الذي عاش طوال حياته مخلصا له ولم يكن موظفا أو مديرا، المصدر الوحيد الذي يجلب لهم المال ليعيشوا منه بعد وفاته، وقتها (عفاف) اتخذت قرار رعاية محل أبيها ليرزقوا منه وليستمر العمل بالمكان، وهذه وصية أبيهم قبل وفاته بأيام وكأنه يعلم ما سيحدث.

كتفًا بكتف الحياة تستمر بالعطاء والجهد والإخلاص والحاج (ناصر) أبو عفاف تربيته لأولاده جيدة الملامح، مميزة الفكر، ومهما حدث هم في رباط ولم ينفصلوا يوما عن أمهم بعد وفاة أبيهم ولم يفكروا في الرحيل عن مسقطهم وأركان أبيهم التي عشقها. أتى كلٌّ من (زلعوكة) و(رأفت) وطلبا من أم عفاف زجاجة كولا، سعرها في ذلك الوقت لا يتعدى خمسة وسبعون قرشا.. أعتذر لك يا عزيزي سأعيد عليك الاسمين مرة أخرى للانتباه زلعوكة ورأفت، داهيتي المنطقة وتسونامي الشارع،

وزلـزال ٩٢، وكل فاجعـة يمكنك تخيلها نابعـة منهما وإن صح التعبير هؤلاء يأجوج ومأجوج!

(حـارث عـوض) وشـهرته زلعوكة.. سـجن أكثـر من مرة ويخرج بكفالة بسـيطة لا تذكر، كثير المشـاكل، أمه غاضبه عليه دائـما، لا يتحـدث إلا بالأسـلحة البيضاء، لديـه أربعة إخوة ولم يتزوجـوا نتيجة سـمعة أخيهـم.. ورأفت حـلاق المنطقة وعند ذكـري عملًا كهذا من الأكيد أنه خلفيـة تغطي مصائبه، متزوج ولديـه ثلاث فتيـات ويسـكن في الطابق العلوي مـن بلكونتنا، وتحت سـتار الحلاقة يعمـل ديلر في جميع أنـواع المخدرات التي يمكنك أن تحصيها وتتخدر لمجرد ذكرها!

بعـد حصولهم عـلى زجاجة الصـودا تنحـوا جانبًـا وأخذوا يتحدثـون سرًا، أهـل المنطقـة الماريـن بجوارهم يعلمـون جيدًا أن هنـاك مصيبـة قد تحضر للشـارع من جديد، جلسـت أترقب هـذا التجمع، لعل الاثنين قـرَّرا التوبة أو قرَّرا التصدق بالمال أو سـترهما الله وهداهما إلى سـبيله وأبعدهما عن تفكير الشـيطان.. وكيف ذلك والشـيطان يتجسـد فيهـم؟ (زلعوكـة) أحد فروع عائلة بركات الفاسـدة والتي تظهر كل عشر سـنين مرة واحدة، لم يكمل دراسته وعمل تباع على ميكروباص وترك عمله سريعًا

لمشاجرته مع صاحب الميكروباص وإصابته بعاهة مستديمة!

الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كنت نائمًا واستيقظت على صوت أحدهم وغالبا صوت زلعوكة ينادى على رفيقه، وبينما وهو ينادى أسمع صوت (عادل توتو) شقيق رأفت الأصغر، يحذره من شيءٍ ما وينصحه بالرجوع وعدم الإقدام على فعله، وقتها لم افهم شيء، اقتربت من البلكونة ورأيتهم وهم سائرين وغير مدركين الى أين تأخذهم خطواتهم العاجلة، علمت حينها أن الحدث يبدو مروعا.. لا أعلم هل البيئة المحيطة هي التي أثرت على هؤلاء أم أن ظروف الحياة تدفعهم دون رحمة لارتكاب أشياء لا تخطر على بال أحد، ومن ظن أن الحياة تقف دائما بجانب من يملك المال فقط ظنه ليس صحيحًا، فالحياة دائما ما تخدع أصحاب المال وتخدع الأشخاص بمظاهرهم، فلا ترى قبح النفس وأنت تتزين بأفضل الثياب ولا تحس بسم اللسان وأنت تتلو نفاق الكلام!

كنت واحدا من الشارع وكنت أهتم بأمور أخرى، اذهب للمدرسة في الصباح الباكر وأعود قبل الثالثة عصرا ولا أعود للشارع إلا لقضاء شيء مهم، من الواضح أن جذور العائلات في شارعنا جذور فاسدة ومهما طرحت من نبات صالح لابد أن

يظهر فيه شيء يحول حلوه لمر.. الحق يقال إن لكل بيت مشاكله وثغراته ولكل بيت اهتماماته وممارساته ولكل بيت ضحاياه من الإهمال الأسرى الذي ينهش في غشاء بكارة أحلامهم الضعيفة!

وفى اليوم التالي تحديدا في الواحدة ظهرا عدت للبيت من المدرسة باكرا، وبدأت في إنهاء واجبى المدرسي وأثناء قيامي بذلك، سمعت صوت عربة شرطة من بعيد يطرب أذني وسريعا توجهت الى البلكونة لأرى أنها توقفت عند منزل (زلعوكة)، لمحت رأفت وهو ينظر من بلكونته وفجأة اختفى، رأيت من على بعد ثلاثة أشخاص يرتدون بدل سوداء ولم أرى ما تحويه أكتافهم من رتب، ولكن هناك واحدا منهم يتقدمهم ولعله كبيرهم.. اقتحموا المنزل وفى أقل من دقيقة كانوا عائدين لعرباتهم ومعهم والدة (زلعوكة) يبدو أن الأمر صعب جدا، فليلة أمس زلعوكة رافق رأفت لمكان ما، تطفلي دائما لمعرفة الحقيقة دون صبر وستظهر حتما ولو بعد حين!

اقترح جدي في ذلك اليوم أن نتناول الغداء مجتمعين بعضنا البعض، فأتت عماتي بأولادهن وعمي وأبي وأمي، إحساس تلك التجمعات على النفوس يبث فيها روح الحياة، وتسرب للعقل السعادة، لم تكن خالية من المشاكل والمهاترات المستفزة، لكنها

كانت لها مزاجا آخر. جلسنا أمام الطبلية ذاك الشيء الخشبي المستدير، وأحيانا تُصنع من الألومنيوم، مساحتها لم تكن كبيرة لكنها تحوي على مسطحها عدة صحون لم تخطر ببالك.. كيف؟ لا اعلم.

أمامي عمي وعلى يمينه جدتي وعمتي يليها أبى ثم أمي، بدأنا في الالتحام بكل ما لذ وطاب وعادة جدتي التحدث أثناء الطعام، أرادت إخبار عمى بما حدث لزلعوكة لكنها تبيع المياه في حارة السقايين، مضغ عمي طعامه برفق وابتلعه ثم أجابها بأن الشرطة ألقت القبض على والدته وهو لا زال هاربًا..

يأتي دائما عمي بكل جديد فبحكم تواجده مع هؤلاء الأشخاص وأنهم أصدقاءه في المنطقة يعلم عنهم كل صغيرة وكبيرة، ولن تصيبه عدوى (الصياعة) إطلاقا. أخبر عمي بعد ذلك جدتي أن زلعوكة ليلة أمس سرق وقتل، وقد سمع أنه قتل أحد الأشخاص العاملين بمجال الكهرباء (كهربائي)، تركت ملعقة الطعام وبادرني إحساس الضيق، كنت أعي جيدا ما معنى القتل وما معنى الاغتصاب وما معنى الخطف وما معنى جريمة يرتكبها أحد الأشخاص فيظلم نفسه ويظلم من اعتدى عليه، أعي لأنني رأيت وشاهدت الكثير منها، فالمجتمع وقتها كان يحوي جرائم بشعة لن يستوعبها العقل.

وأن تصبح هذه المرة الضحية عامل، يرهق نفسه طيلة النهار ليسد خانة احتياجاته الشخصية أو احتياجات أولاده إن كان متزوجا، شيء يدعو لليأس ويدعو للانتقام، أي قلب هذا الذي يقتل أب عائد لمنزله وأولاده ويحمل لهم ما يحبونه؟ أي قلب وأي فساد وأي عقل يدبر لقتل شخص ينتظره أهله كي يتناول معهم وجبة واحدة متمنين التجمع ليدخل في قلبهم السرور؟ دار في خلدي أسئلة كثيرة، ماذا فعل زلعوكة؟ وهل رأفت له علاقة هو الآخر؟ أم رجع عن فعلته لأن لديه ثلاثة أطفال في سن يصعب تركهم فيه؟ ما من شخص يدفعه عقله لارتكاب جريمة كهذه إلا ويحتاج لشيء وبدون تفكير ينفذ دون وعى. غالبا ما يكون تحت تأثير شيء بجانب المخدرات تحت تأثير الحيرة وشلل التفكير والاحتياج.. ويأتي كل هذا من الجهل وعدم التوعية بأن هناك حلول لكل مشكلة يقابلها ويصطدم بها الإنسان.

جلسنا بعد الغداء لنشاهد التلفاز معا، نأكل الأيس كريم وقتها كان صاحب العصى الفارغة يربح واحدة مجانا، فياله من ربح تسعد به البطون. انسحبت من الجلسة وقررت المذاكرة، كنت بارعًا في فتح الكتاب وغلقه ومن أوائل الطلاب في صناعة

الصواريـخ الورقيـة والمراكب العائمة في (طشـت بلاسـتيك)، جيـل بأكمله حلم بركوب هـذه المراكب الورقيـة، ولن يكتمل الحلـم فهي الأخرى تغرق عند سريانها في مياه الطشـت. بدأت بفتح الكتاب وسـمعت وقتها صوت سـيارة الشرطة، أسرعت حينها لنافذتي الخاصة، وجدت هجوم على محل (رأفت الحلاق) وقـد ألقـت الشرطة القبض عليه، حينهـا لم تنتظر زوجته رحيل العربة فأخذت تهاجم وتحـاول الركوب معه والقوات منعتها.. صراخ أمه لا يزال في المشـهد، بكاء بناته الصغار يعاقب النفس وما كان لهم أن ينظروا دون استيعاب!

زحام الشـارع في هذه الأوقات مثبـت علميا انه واجب على أهـالي المنطقة، وبدون سـابق إنـذار انفض الزحـام! وبدأ عادل توتـو بإخبـار الجميـع على تـرك المـكان ليكملوا العمـل بمحل الحلاقة، وعادت الحيـاة لطبيعتها. رأيت عمى وقد ارتد مسرعا لمعرفة الأخبار الجديدة، فذهب مع عادل توتو وأمه وزوجته الى قسم الشرطة وقتها وعلى حسب ما استنتجته أذني..

اسـتغفرت الله وعدت لفتح الكتاب وقررت المذاكرة، وبعد فـترة غلبنـي النوم واسـتمر حتـى اسـتيقظت صباحـا وذهبت للمدرسة.. يومًا مليئًا بالأحداث وعند عودتي وجدت (جدتي)

متعبـة بعض الشيء.. واضح أنها أرهقت من تجمع أمس! وبينما ونحن جالسين سمعت عمي يشرح لجدتي ما حدث بالتفصيل، بأن زلعوكة قد ألقوا القبض عليه ورأفت مشترك معه في جريمته مـع احتماليـة الحكم القاسي الذي سـيصدر مـن المحكمة، تلك القضيـة حينها هزت الرأي العام وبدأ التحقيق فيها سريعا حتى ينال الجاني عقابه.. لم يخطر ببالي حينها سوى الحكم بالإعدام!

يـا لطيف اللطف.. حكم إعدام لشـاب في مقتبل عمره ينفي طموحه وأحلامه الى أجل غير مسمى، وفي العشرين من عمري أدركـت أن في الحلـم حياة، ومن قتل حلمه مـات وهو على قيد الحيـاة. أنهت الشرطة أحلام الشـابين عقابا لقتلهم حلم شـاب مثلهـم، المجتمع لم يحـرص على حلمك وليس قتـل الحلم يعنى قتـل صاحبه، يكفـي قتل الإحباط لشـعور الأمـل أو قتل عدم الإمكانيـات لتنفيذ الفكرة أو قتل الاحتيـاج لخطوات النجاح. كلهـا جرائم في حق المسـتقبل ومن يسـتطع محاربتها والانتصار عليهـا لابد وأن يصبح مـن النبلاء، وهنا ليس النبيل من يمتلك جاهًـا وسـلطانًا أو من عائلة ملكية، تغـير الفهم وأصبح هؤلاء الذين يمتلكون فكرًا راقيًا وخطوات مميزة نحو أهدافهم.

بعـد فترة قصـيرة وجدت أبـى يتحدث مع عمـى عن قضية

القتل المنسوبة لزلعوكة ورأفت، أخبره وقتها انه تم تحديد يوم تنفيذ الحكم بالإعدام وان رأفت حكم عليه بالسجن خمسة وعشرون عاما.. الحكم بدا لي مضحكا بعض الشيء، ما فائدة عقابي بالمؤبد وبيدك أيها القاضي أن تعاقبني بالإعدام فهذه موتة لا تختلف كثيرا ولكنه موت ببطء شديد.. وتم منع أخوات ووالدة زلعوكة من الزيارة. يوم تنفيذ الحكم كان الشارع صامتا، توجهت وقتها للبلكونة وبعد فترة قصيرة أصدر صوت صراخ وعويل من ناحية بيت زلعوكة:

- اتعدم.. أخويا راح مننا!

ولن أنسى حتى وقتنا هذا جملة أمه: أنا اللي قصرت في حقك يأبني!

كيف لأم أن ترى ابنها قاتلًا ومع ذلك تحنو عليه؟ أي أم تحمل في قلبها الحنان الذي يحزن على ابنها وهو مذنب ألقى الله في قلبها رحمته لتستمر الحياة.. تلك هي الأم.

يتأثر أناس الشارع بالأحداث دائما، على الرغم من أن هذه المرة الاثنين قتلا والأكيد أن في صغرهم كانوا يحملون البراءة التي محتها الأيام شيئا فشيئا.. أحلام الصغر تندثر مع تقدم العمر، فليت تلك الأيام تعود لنرى كيف كانت براءتنا تتحكم

في قلوبنا. تلك هي الدنيا يوم تلو الآخر والجميع نسي ما حدث وعادت الأمور كما هي عليه في السابق (عم طالب) وتروسيكله (أم عباس) لا زالت تلقي بماء غسيلها في الشارع، والمدعي (بوش) لازال مقتنع بأن الحشيش لا يذهب العقل وآخرون مستمرون في ممارسة رياضة النميمة وأكل لحوم البشر.

حتى أن (شريف) ابن (عم عبد القادر وزة) احتفل هو وأصدقائه المقربين بعمله الجديد كسائق لاحد الميكروباصات، فأخذوا يلفون سجائر الحشيش ويشربون البيرة في وضح النهار بقلب الشارع وكأن (شريف) توظف وقتها في أحد الوظائف الحكومية!

لعل (عم عبد القادر وزة) مفتخرا بأبنه، هذا الرجل البسيط يعيش في الحياة بفطرته ولا يزال متمسك بالعادات والتقاليد الغير صحيحة، يدخن بشراهة، يرتدى نظارة كعب كوباية، كثير الكلام، فخره بابنه وسعادته آتية من اعتماده على نفسه وانه سيرحمه من المصاريف. ورأيت وزة ذات مرة يحكى مع أحد سكان الشارع:

– الحمد لله.. الواد اشتغل.. كنت عايز أطمن عليه قبل ما أموت.

– ربنا يديك الصحة وتشوفه دكتور.

الأمنيات فقط هي ما نعيش عليها، بدون الأمنيات قلوبنا تموت وأعمارنا تدبل حتى وان كانت الأمنيات مستحيلة، فالبعض يظن انه يكمن بداخلها البساطة والسعادة. نادتني أمي كي أحضر لها كيلو أرز من بقالة (أم عفاف) بعدما أحبطت محاولة قطة أرادت أن تسرق قطعة من الدجاج المتبلة التي ستحضرها للغداء، سلاح أمي دائما كان الشبشب أبو صباع.. سلاحها الفتاك!

وبالفعل نزلت للبقالة وأحضرت ما طلب مني وعدت الى البلكونة، سمعت وقتها (عبد القادر وزة) يخبر أهل المنطقة من ميكروفون المسجد أن ابنه قد حصل على عمل جديد ويا لها من فرحة عارمة.. لم أصدق ولم أستوعب ما حدث، لعل وزة فقد صوابه ولعله كان يفقد الأمل في ابنه.. وعلى لسان بعض الأشخاص في الشارع سمعتهم يقصوا على بعضهم أن وقتها شيخ المسجد أسرع إليه حتى لا يبالغ أكثر من ذلك، ومع اعتراض الشيخ (عادل) واقتناع (وزة) بما يفعله، واجه الشيخ انتقادات كثيرة حول ما حدث...فكيف سمح الشيخ بكل هذا؟

كان فرحا جدا وزة بوظيفة ابنه الجديدة ونفذ (وأما بنعمة

ربـك فحدث) بطريقته الخاصة والتي تسـببت في انتقادات أهل المنطقة للشـيخ عادل صاحب اللحية السـوداء والشعر الأسود الكثيـف وجلبابه ناصع البياض والـذي ألقى القبض عليه أكثر من مرة بداعي انه من أحد الجماعات الإرهابية، ولا يستمر يومين ويخرج عائدا لمنبره، يسير دائما بمبدأ (المسلم من سلم الناس من لسـانه ويده) يعي جيدا ما له وما عليه، يسـير بين الناس مبتسـما ثم انه سـبب في تسميتي بهذا الاسم بعد أن قرر والدي تسميتي أسـم أخر، وقتهـا اقتنع والدي ونفذ اقتراحـه. أما عن تبريرات وزة والتي سار بين الناس ينشرها، تخبئ وراءها إحراج وجهل، تخبئ وراءها الكثير من عدم الوعي الفكري.

وقتها اسـتمر (عبد القادر) في السـير الى منزلـه عائدا، التقى بابنته (شـادية) ربما كان هناك أمر عاجل قد استدعاها، وعندما سـألها لم تجبـه وذهبت مسرعـة.. واسـتمرت علامـات البلاهة المعـروف بهـا على وجهه. حينهـا رأيت (عم طالب) يسـب ابنه (مصاصة) لما فعله في التروسـيكل، وخرج (كريم) الذي يسكن بجوارنا.. شـاب مصاب بالإعاقة ولكنه دائما ما يدب الأمل في قلبي، يخرج من شـباكهم الخاص ليتنفـس بعض نفحات الهواء المطلوبـة للترويح عـن النفس، لا يحب الإزعـاج إطلاقا، خرج

وألقى عليَّ السلام وأجبته بالتحية، عندئذٍ سألني عن جدي وصحته واسترسل حتى صارحني بأمور قد تبدو لي ولشعوري مهمة.

حدثني قائلًا:

- جدك يحبك كثيرا.

أصابتني القشعريرة من تلك الكلمة، همس عقلي لأطراف عيني بدموع السرور، فالكلمة قيلت من شخص على فطرته لا ينافق ولا يجامل. لاحظ كريم على وجهي علامات الفرحة واختتم حديثه معي بالدعاء لي أن يحقق الله مرادي.. دعيت له بالشفاء وتمنيت فرصة أخرى تجمعني بحديثه الصادق منزوع الحقد. مرت الأيام على فرحة (عم عبد القادر وزة) بوظيفة ابنه (شريف) وعلى سب (عم طالب) لابنه مصاصة، وعلى ضياع الحذاء الرياضي خاصتي، وإحساسي حينها بضياع حلمي، أدركت وقتها أن الحذاء يسهل تعويضه والحلم إذا ضاع يصعب تعويضه.

تعقب هذه الأحداث الجلسة الليلية، الصحبة والعشرة، المزاج الخالي من التشتيت، جلسة المزاج العالي، برئاسة (أبو سمير) وأبو عباس وأبو شريف وعم (طالب) حديثهم لا يخلو من الضحك والفرفشة، واضح أن قطعة الحشيش في هذا الوقت كانت مميزة عن غيرها من المرات السابقة. قاطعت

حديث عزيزي (عبده) وسألته عن (أبو عباس) أهو زوج المرأة جارتكم التي ألقت أكثر من مرة ماء غسيلها وكانت سببا في انزلاق... قاطعني وأجاب سريعا، لعله كان سينسى شيئا مهما:

بالفعل هو.. (أبو عباس) عائد من السعودية منذ فترة قصيرة ورحلته استغرقت أكثر من عشر سنوات، غاب فيها عن بيته وأولاده وزوجته حتى يحصد المال، ليستطيع تلبية رغباتهم.. حتى أنني كل مرة اسأل فيها (أم عباس) عن زوجها كانت تجيبني بسخرية: اتجوز السعودية وقاعد هناك.

كنت أتعجب من أجابتها، وفهمت أخيرًا أنها تسخر من كونه جالس هناك ولا يستطيع العودة.. وعندما ينوي الراحة ورؤية أولاده كان يعود فترة قصيرة ويذهب سريعا، حينها كانت تستمع أم عباس لأغنية "جاي في إيه وسافرت في إيه وماريحتش عندنا ليه". عاد أبو عباس وكما يقولون (إيد ورا وإيد قدام)، لم تحزن أم عباس لعودة زوجها بتلك الحالة، لم تعاتبه، غالبا حسها يؤكد لها في كل مرة أنه سيعود بخفى حنين!

صمت برهه أستاذ (عبده) أظنه نسى ما يقصه قبل أن يذكر ابوعباس فذكرته.. وعن الجلسة الليلية، والفرفشة... قاطعني سريعا وأكمل:

تذكـرت.. بـدأ المجلـس، وبدأت معـه الفرفشـة والضحك وتعقبه الحديث عن الشارع وفجأة بدأ كل واحدا منهم بفضفضة مـا يحويه قلبه من هموم، وما يحـدث من أمور صعبة هذه الأيام. لمحت من بعيد (سـنبل) ابن أم عباس يهرول سريعا حتى وصل لمجلس الضحك وصرخ فيهم:

- ألحقوا شريف بسرعة؟

لم يهتم أحد بسـؤاله عما حدث، وتسـابق الجميع (أبو سمير) يـسرع بالفانلـة الحـمالات، أبـو عبـاس يرفـع جلابيتـه وينطلق هـو الآخـر (عـم طالـب) أخـذ عصـاه ورافقهم وأبـو شريف يـسرع وحالـة الصدمـة تسـيطر عليه.. جميعـا يتجهـون لموقف الميكروباصات.

أتى من بعيد أحد الأشخاص ليبلغ باقي المنطقة، أخبر حينها النـاس أن (شريـف) قـد تـوفى.. انتشر الخـبر سريعـا في أرجاء الشارع (أم شريف) أتت من بعيد تلطم على وجهها (أم عباس) لحقت بها لتواسيها جدتي أسرعت بالنزول نحوها لتؤآزرها (أم سـمير) تشـاور عقلها باتخاذ قرار النزول، نظـرا للخلاف الذي بينهـم (زوجـة الزناتي) امراءة سـمينة ولا تسـتطيع اللحاق بهم فاكتفت بالمواساة ببعض الكلمات: قلبي عندك.

انتهى اليوم بالخبر المفجع، وأتى صباح اليوم التالي وأحضروا جثة (شريف) وأتمّوا عملية الغسل وسيدفن بعد صلاة الظهر. حزن عليه الشيخ عادل كثيرا.. عقلي وقتها جن جنونه.. ماذا حدث ليموت؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

أخذوا الجثة وذهبوا بها للمسجد، قررت النزول هذه المرة من بلكونتنا، وقفت على ناصية الشارع لأري الجنازة وذهبت مع أبى لأصلى على المتوفي، حضر الجنازة أشخاصٌ كُثر، ربما الدعوات هطلت عليه كالمطر، بدأ الرجال بحمل النعش ليذهبوا به لمثواه الأخير. قرر والدي رحيلي وعودتي للمنزل مجددا، حتى يذهب ويكمل معهم مراسم دفن (شريف) رأيت هذه المشاهد كثيرا، وحزن أهل الشارع لما رأوه في هذه الفترة القصيرة، مشاهد حقيقية موجعة ليست بصاخبة أو تدعو للضحك، إنما تدعو للحذر من الغفلة فلا يبقى شيء لك غير عملك.

جلست مع جدي هذه المرة والحزن يخرس لساني ويشل أعضائي على الرغم من صغر سني. كنت أعي جيدا أن الفراق صعب، قمت بتجربته عندما توفت جدتي لأمي كنت أحبها كحبي لجدي.. مكثت بجانب (جدي) حتى عادوا والحزن يملأ جيوب سروال أبي وعيون جدتي وابتسامة أمي. وعاد

عمي ليأتي بما لا يسر، ومن طول قامته كان يستقبل الإشارات بقوة، ومن أين كل هذه الأخبار يا عمي؟ مات (شريف) إثر هجوم الشرطة على ميكروباصات السائقين لإشغالهم طريق رئيسي لم يكن مخصصًا كموقف، ولزيارة شخصية مهمة، كان لابد من فض الطريق، وما كان للسائقين إلا أن يدافعوا عن عرباتهم، وفجأة ركب أحدهم ميكروباص ليهرب به فرجع للخلف ليفتح طريق للهروب وأثناء رجوعه لم يهتم بمن يقف خلف الميكروباص فدهس شريف وكان الضحية، نقلًا تفصيليًّا لما رواه عمي وهو يتناول كوب الشاي.

رأيت (بوش) من البلكونة يشرف على كراسي العزاء، والصوان الذي أقيم لشريف لبدء العزاء بعد صلاة المغرب وسيتلو القرآن أحد القراء البارعين. غريبة أن ذلك (البوش) يشرف على الرغم من عدم ظهوره في أحداث أمس، لعل اختفاءه خير! نزلت العزاء مع أبي وعمي، كانت أول مرة أرى فيها شيخ يقرأ القرآن بتلاوة كالذي في التلفاز أو من أسمعهم في الراديو، سألت أبي ذات مرة عن شيخ أعجبني صوته وطرب أذني. حدثني وقتها عنه وأخبرني أنه (الطبلاوي) وقتها ذكر لي أسماء أخرى قد تغرق وتذوب في حلاوة أصواتهم وبراعة

تفاصيل خروج حروف القرآن من أفواههم كعبد الباسط عبد الصمد ومحمد صديق المنشاوي.

شرف لي أن حفظت وقتها جزء عَمَّ كاملًا وبعض من سور القرآن، وتعلق في ذهني دائمًا قول الله عزوجل في كتابه العزيز: إن بطش ربك لشديد.

وما إن انتهى الشيخ من قراءة القرآن ودعانا لقراءة الفاتحة، حتى هم الحضور بالانصراف، وأكملنا الجلسة أنا وعمي وأبي حتى يقل الازدحام، وبالصدفة كان (بوش، وسنبل، ومصاصة، وسالم) جالسين أمامنا. لحظة واحدة يا صديقي! سالم.. مهما وصفت لك تفاصيله، لن يصل عقلك لتصوره كاملًا، شخصٌ غريب، يوم بلحية وملتزم ويوم يثبت شعره بمستحضرات التجميل، ويوم آخر يزيل شعره كاملًا.. يتناول الكشري دائمًا دون وعي، لا أعلم ما السبب؟ من الأكيد أنها جينات تغلب عليه، والده ذات مرة رأيته بالصدفة يتناول الكشري وهو ذاهب لعمله، وفى مرة صدمت برؤيتي لأخيه وهو يأتي بكمية كشري للعائلة لا بأس بها. اعتراضي ليس على الكشري بالذات بل على كمية الشطة الرهيبة التي توضع ويتناولونها باستمتاع غريب وأتذكر يوما أن والد (سالم) ضرب ابنه الأصغر بسبب أنه نسي إحضار شطة زيادة!

الأربعة شباب المذكورين سابقًا عندما يجتمعون لا تشبع من ضحكهم على الرغم من سخافة (بوش)، فالثلاثة كانوا يزيلون سخافته فورًا.. تختبئ فيهم روح الشباب، وأزمتهم الوحيدة بيئتهم التي نشأوا بها.. سرًّا دعى (سالم) أصدقائه واقترح عليهم تناول العشاء معا، وسبق (سنبل) حديث (سالم) واعترض على أكلهم الكشري، لأن سالم سيقترح ذلك وأعلن وقتها العصيان. عاد سالم واقترح عليهم أكل المكرونة بديلًا عن الكشري.. يتضح لي أن الحزن على صديقهم استحوذ على أفكارهم وأساليبهم! عدا مصاصة.. ضميره لازال حي يرزق بالحس والمشاعر وذكرهم بأن صديقهم لم يمر يوم واحد على فراقه.

وقتها صرح (بوش) أنهم لابد أن يلفوا سيجارة ويتناولونها قبل أي شيء، وهنا اتضح وجود قطعة حشيش لابد أن يقوموا بتجربتها، وقتها قالها بوش بصوت عالي وجذب انتباه الجميع. غضب سالم، لأول مرة أراه فيها غاضبا ومن شدة غضبه فقدت الحروف مخارجها الصحيحة وقال (لبوش): يا عم وطي شوطك!

****

ابتسمت من قلبي لحديث أستاذ (عبده) وعلى أحر من الجمر انتظرت النهاية، نحتاج دائما لتجديد كل شيء في عالمنا، حتى دماءنا هي الأخرى تحتاج أن تبتعد مسافات عن كل ما يلوثها. أذان الفجر قد اقترب ولم ينتهي من قصته الشيقة، أراد أن يخلد (عبده) للنوم وجاءت لحظة اعتراضي على قراره بعدما صرح أن يكمل القصة في وقت آخر، أقنعته باستكمال الحديث وأنه لابد من الوفاء بوعده..

أشعل سيجارة وأخذ دقيقة يفكر ويتذكر، حينها تذكرت شيء مهم أردت معرفته، اتخذت وضع تمديد الأرجل على المنضدة الكبيرة، سمح لي بعدم الإحراج، بعدها ألقيت عليه ما أردت:

– وماذا عن حلمي وقرار زواجه.. ماذا حدث؟!

اسند ظهره على المسند الخلفي للكرسي الجالس عليه ورفع عينه ليتأمل سقف الحجرة وتنهد تنهيدة، ربما سيخرج فيها وسيبوح بكل ما لديه، وأكمل:

بدأت إجازة نصف العام ولازالت حتى الآن سريان حلاوة مذاقها في عقلي، باحثا فيها عن المغامرات دائما، ألعب الكرة والبلي وأتاري السوبر ماريو.. ولأفراح المنطقة وسعادة الأهالي من القلب.

أيـام أردت فيها الوصل والتقـرب طالبا فيها أن يمن الله على بحفـظ كتابـه، فالشـيخ (سـامي) يظل ينتظرنـا يوميـا وبرفقتي أصدقائي في مسجد (الرحمن). ويوم ذهابي للمسجد تعمقت في تجويد (سورة الضحى) حتى حفظتها كاملة، وبعد ساعة عدت للمنزل ووجدت أفرع النور وإضاءة الأفراح تعلق في الشارع، لم يخطر ببالي أن (حلمي) هو المقبل على عرسـه، دخلت المنزل بعد أن فتحـت جدتي باب شـقتنا وجدت حينها (أبو سـمير) يجلس مع جدي يتناقشـون وربما يقص عليه إجراءات إتمام الزواج من (شـاهندا).. ألقيت عليهم السـلام وجلست في البلكونة بحجة مشاهدة البهجة وأفرع النور المضيئة والمليئة بالألوان المبهجة..

سمعت حينها أبو سمير يحدث جدي:

– ذهبنـا وجلسـنا مـع (فرج الحلـواني) قبلها ابنى سـمير قد ذهـب وفاتحه فالموضوع، ورحـب الرجل وطلب أن نحدد يوما في اقـرب وقـت للذهاب لبيتهـم وطلب البنت رسـميا، بعدها بعـدة أيام ذهبت أنا وحلمي وأمه وأخـوه الكبير إليهم، واتفقنا عـلى كل شيء بما يـرضى الله، ووجدته متمسـك بحلمـي لابنته والحـق يقـال كنت انتظـر منه معاملـة غير التي أظهرهـا لنا كان سـوء الظن يستحوذ عليّ وقلت في نفسي حتما سيرفض، وبادلته

نفس الشعور فلم أدع موضوع سجن ابني، وأنه كان السبب هو وابنه، وأحسست في عينيه ندم وكسرة لذلك باركت الزواج، وبارك لابنته هو الآخر.. ولكنه سألني سؤال لم يخطر ببالي: وبعد الزواج وعند خروج ابنك من فترة سجنه ماذا ستقول له؟!

زادت نبضات قلبي.. سؤال سيربك حسابات كل من يفكر فيه. مجبر أبو سمير أن يضع يده في يد من تسبب في سجن ابنه.. والحلواني مجبر على إعادة تصحيح ما فعله ابنه وليس من عادته تصحيح شيء. الحلوانية معروفون بمشاكستهم وتخطيهم لحدود الأدب والأصول، سبحان مغير الأحوال، فبعد فترة علمت بنود الاتفاق الذي تم بين الطرفين. بيعت (شاهندا) بيعة رخيصة الثمن، سمعت أبي يحكى لأمي ويخبرها بذلك!

(حلمي) حصل على ما أراده بسهولة ويسر، عقله لم يصل للفكر الذي يخيل إليهم، أن البضاعة فرصة للشراء قبل غلاء ثمنها، وبالتراضي تم تحديد موعد الزفاف.. هم أبو سمير بالرحيل ومر الوقت، وفى الموعد المحدد تزين الشارع بالإضاءات المتنوعة وتم الزفاف وانتهت مراسم الليلة.

أخيرا (حلمي) و(شاهندا) في بيت واحد يحتضن فكرهم وحبهم واشتياقهم.. اليوم التالي عدت سريعا لدروس حفظ

القـران والشـيخ (سـامي) بطلّته وبشاشـته يلقى علينـا الكلام الطيـب الذي يداوى تشـتت دروبنا، وفى طريقـي للعودة رأيت (مصاصـة) يرافـق (زكـى) ابـن عـم (هريـدي) لقضـاء قطعة حشيش، وقالها له علنية أثناء سيرهم في الشارع. (زكى هريدي) أخ أكـبر لأربـع أخوات منهم فتـاة وثلاثـة أولاد (أيمن، رزق، محسـن) سجن قبل ذلك ثلاثة شهور في قضية حيازة (موس) في فمـه بعد ضبط شرطي له أثناء تفتيشـه، وقتها اشـتد بين (زكى) والشرطـي الحديـث، فألقى عليـه القبض ولم يسـتطع الإفلات منـه، نقـلًا عن زكى بعدما خـرج وقص على أصدقائـه متفاخرا بنفسـه وتطاولـه على شرطـي.. فكيف لـه أن يفعـل ذلك، على الرغـم من أنـه مدان وليس مظلوم؟ أو ربما سـبه الشرطي وردة فعله أتت بهذه الصورة الغير سوية لصورة أكثر سوءً.

وفى اسـتكمالي لرحلة عودتي، صادفـت صديقي (مودي) ويا لهـا من صدفة رائعة فصداقتنا دامـت كثيرا، وأخيرا وجدت من يشبهني.. (مودي) اسم مستعار لصديقي (محمد شاكر)، يشغل تفكيرنـا دائما تشـجيع النادي الأهلي، أتذكر مرة أننا كنا نشـاهد مباراة الأهلي وريال مدريد وبرفقتنا والدي ووالده وأثار غضب أبي هجمـة أهدرها لاعب النادي الأهلي حينها أصدر أبي صوتا

مرتفعا وفزع (مودي) وفى يده كوبًا من عصير المانجو وفى ثواني أصبح المشروب على التلفاز، وقتها لم نكمل المشاهدة لأن والده ضربه وغضب منه! تعجبت من ردة فعل أبيه.. لماذا ضربه؟!

عم (شاكر) والد (مودي) رجل يعمل في مجال الإلكترونيات، وصديق والدي منذ الصغر، مطلق ولديه ولد وبنت، لم يفكر في الزواج ثانية.. ودائمًا يرى أن لا أحد يستحق الحب والاهتمام ولا أحد يستحق العطف، هذه وجهة نظر مبنية على عوامل كثيرة، وما علمته بعد ذلك أن طليقته تعرضت للضرب منه لأنها لم تضبط ملح الطعام جيدا! قيل أنه انذرها مرتين قبل ذلك، رفضت أسلوبه وأعلنت الحرب برغم حبها له، وهو الآخر لم يشعر بحبها! يتطلب أحيانا من الرجل والمرأة تيسير الأمور على نحو يستطيعون عليه الاستمتاع بحياتهم دون إيذاء للكرامة واحترامًا لأخلاقهم . سار معي (مودي) تجاه البيت وتحدثنا فترة قصيرة، ووعدنا بعضنا البعض بالالتقاء مجددا لقضاء وقت ممتع، تركته وأكملت السير لمنزلي حتى التقيت (عوض) جارنا في الدور السفلى، عمره عشر سنوات، اجتمعت فيه عفاريت الدنيا، وسكنت عقله وجسده، شقاوة الصغار بأكملها قد أصابته، فما إن رآني حتى قذفني (بكوز ذرة) هربت

مسرعا بالصعود على سلم المنزل حتى اقتربت من باب شقتهم وبعد اطمئناني أنه لن يلحق بي، طرقت الباب حتى أذن لي والده بالدخول.

كنت دائم التواجد هناك للمرح مع أولاد (أبو عوض).. شقة يتسابق فيها الخيل من اتساعها، جالسين دائما في الصالة الفسيحة التي بها منضدة على اليسار ومنضدة في منتصفها وتلفاز معلق أمام المنضدة في المنتصف، حصيرة تغطي أرضية المكان، طرابيزة تحت التلفاز، وقتها كان يجلس (أبوعوض) أمام الباب مباشرة على منضدة الصالة في اليسار، بفالنته الحمالات وشورته الأبيض، يكركر (بالجوزة) ذلك الاختراع الخاص بأصحاب المزاج العالي ويشاهد التلفاز بتركيز شديد. الحاج (ضيف) أو (أبو عوض) كما كان يحب الناس أن يلقبوه، رجل أتى للمنطقة من الصعيد الجواني، يعمل موظفا في مكتب التموين بعد طلب نقله من مكتبه في الصعيد إلى مكتب آخر محل إقامته في القاهرة.. يحب (جوزته) أكثر من أبنائه، يغضب سريعًا، يحب رائحة طشة الملوخية، يتجشأ أثناء تناوله الطعام وفى كل أرجاء شقته حتى أنني كنت أسمعها وأنا أذاكر في دورنا العلوي، حينها سألت والدتي عن تفسير ذلك الصوت فتجيبني: دائما أبو عوض يرهب

أولاده لينامـوا! ولن اسـأل والدتي مرة أخـرى لأنها لن تقول لي الحقيقة، وظن عقلي أن (أبو عوض) أصيب بطفح ببلوعته التي يلقى فيها ما يحب.

أتذكر أن صورة زفافه معلقة اعلى التلفاز، مقاسـها لا يتعدى الثلاثـون عرضـا وأربعـون طـولا، فيهـا يجلـس وزوجته تقف بجانبه، صورة تبدو منعدمة الفرح، لونها ابيض في اسـود، أظن أن ابوعوض سـيطر عـلى المصور ليجلس هو بـدلا من زوجته. الصـورة تبدلت وملامح الفرحة تبدلـت، الوضع الصحيح قد اختل توازنه، تقريبا هذه عادات وتقاليد صعيدهم وقتها.

لا اعترض على كونه جالس، لكن انظر للأشـياء بالتفاصيل، فالحب يأتي بالتقديـر وتفاصيل الصورة بين الرجل والمرأة كثيرا ما تصف حالتهم وحبهم وتـوازن العلاقة بينهم، وتوضح دائما مـدى القـرب والبعد، وتوضـح دائما قـدر السـعادة والاتفاق، وتوضح نسـب الصـدق. الابتسـامة من القلب أكـبر دليل على الرضـا والقناعة بالشيء، تدل دائما على إحياء الروح أو مواراتها في التراب وكتابة نهايتها!

(أبـو عـوض) يملـك كرشـا كبـيرا، يسـتخدمه بديـلا عـن الطرابيـزة أثناء تناوله كوب الشـاي (تقيل سـكر زيادة).. رزقه

الله بأربع فتيات وولـد، تنازليا الكبيرة (أمل) لم تكمل تعليمها، وبعدهـا (عبـير) تخرجت من معهد حاسـبات، بعدها (سـمية) في الصـف الثالـث الإعـدادي، والأخـيرة (مديحـة) في الصف الخامس الابتدائي، وذاك الذي عجن بمياه العفاريت (عوض) يتميز بالفشـل وفى صفه الثالـث الابتدائي. وأذكر أن أبوعوض يحبنـي كثـيرا، وأنا أكـره الدخـان الصاعد من جوزتـه والخارج مسـتنفرا مـن فمه وأنفـه، حرارة الجـو وقتها تسـتدعي لنـزع جميع الملابس والتجرد من كل شيء يسبب العرق.

جلسـت عـلى بعد منـه، وأتت مديحة لنلعب سـويا، شـقاوة الصغر تعتمد أحيانا على دعم المشاركين معك، ومديحة تشجعني دائـما للعـب الاسـتغماية والجـري في الشـقة، وفى مـرة ارتطمنا بحجـر جوزة أبيها، حتى وقـع الفحم فغضب وضربها! لحظتها لم يهـدأ له بال إلا بعدما أحضرت له زوجته فحمًا آخر، ووضعته ورصصتـه جيدًا ولكن مزاجه قد تعكر وفقد مذاق (المعسـل)، فقرر الذهاب للقيلولة وأم عوض لم تكن في حسـبانها ذات يوم أنها سـترص لزوجها فحم على شيشته أو أنها تضبط مياه الجوزة حتـى لا تنفس أو أنها سـتصاب بهلع عندمـا يوقظها زوجها في منتصف الليل يريد أن يضبط مزاج صندوق عقله الفارغ!

كـم عشـقتُ المـرأة الصعيديـة التـي تحمـل عـبء كل شيء حولهـا دون شـكوى واحـدة، المرأة بجميـع تفاصيلهـا تتحمل وتحمـل الكثير، وحرف التاء الزائـد على كلمة (تحمل) يدل على صمودهـا بجميع جوانـب الحياة، المـرأة تحمل وتتحمـل وتتألم وتحلم باسـتقرار أوضاعها.. كم بحثت كثيرا عن حضن يخفيني عن الواقع الضال، كم بحثت في أوراق الشـجر عن ثمرة تهبني الحيـاة، كـم بحثت عـن أميرة تجلس عـلى عرش نبضـات حبي تسمو بي نحو الشهادة والتضحية من أجلها.

نحتـاج أن نعيـش ونضحي من أجل شيء يسـتحق، فالمعاناة دائـمًا وراء الأشـياء الهاويـة والتـي لم يكن لها فائدة، لا تسـتطيع السـير وحدك دون رفيق تختبئ في صدقه ولا يسـتطيع دمك أن يتلون شيء غير الأحمر. لكن تسـتطيع دمـج دماءك لتصبح برفقة إحداهن، وفى قلب إحداهن، وفى وجدان إحداهن..

أم عوض الصعيدية المتأصلة بدأت في تنظيف البيت وإحضار الغداء، وقتها صعد ابنها (عوض) من الشارع وأخذ يثيرغضبى بحركاتـه البهلوانيـة، ربـما كان جائعًا وبعد أن يـأكل من الأكيد أنه سـيروق بعض الشيء.. دخلت أم عوض موسـوعة جينيس حيث سـجلت من ضمن أعظم امـرأة في العالم في عمل المحشي

(الكرونـب) حيـث خلطـة الأرز التـي اخترعتهـا قـادرة عـلى الذهاب بك لكوكب آخر من شـدة سـبكتها وطعمها.. فقدت طعم المحشي بعدها، ولعلي كنت محظوظ لأني شاركتها ذات مرة في لـف ورق المحشي، وسرعان ما كان الأرز يسـقط من الورقة لتصبح فارغة وقتها كانت تضحك لي، وتمازحني ساخرةً: جتك خيبة.. مش عارف تحشي كويس!

أخذت أم عوض تحضر الطعام ومعها بناتها يدًا بيد، واقترب موعد اسـتيقاظ زوجها ولم تنتهي من تسـوية المحشي، أسرعت (أمل) لتشـعل بوتاجاز آخر أو ربما الوابور ليساعد في التسوية، وهمـت (عبير) بتأخير منبه والدها المزعج رناته إلى سـاعة كاملة حتى يكملوا باقي الطعام، لكن (أبوعوض) فاجأهم باستيقاظه إلا أنـه يعتمد على منبهه الخاص فقط، وإنما منبهه الداخلي يعمل بامتياز. رحبت زوجته باسـتيقاظه وكما يقولـون (اللي مربّي قرد عـارف لعبه) أحضرت له سريعا (جوزتـه) ولازالتا أمل وعبير تحاولان إنجـاز الطعام، كل هذا يحدث، وأنـا أجلس مع مديحة ألعـب وأتابع من بعيد لبعيد، حتى ملّـت من أبيها ودخانه وتنحت جانبا وتركتني وحدي.

وما باليد حيلة جلست أشاهد التلفاز وليس كما يحلو لي وإنما

كما يحلو لأبو عوض، نشرة أخبار الثالثة عصرا، تتهاطل الأخبار على مسامعنا ومن بينها خبر حبس موظف مرتشي والحكم عليه عشر سنوات، عيون أبوعوض أخذت تتجه يمينا ويسارا، القلق مرة واحدة أصاب سواد عينيه.. وقتها كان هناك تليفون المنزل، أخذه وأجرى اتصال هاتفي مع أحد أصدقاء عمله يشرح فيه خبر الموظف المرتشي، ويتناقشون في أوضاع المدير الجديد، الحديث كان حارًا جدًا ولم أعي شيئًا في بداية الأمر لكن لسان حاله نطق: اوعى نروح في داهية.. عندنا عيال عايزين نربيهم.. لو حد باعني هسلم الكل!

ترتجف عروق يده خوفا، ويصب العرق من جبهته صبا، ماذا حدث لكل هذا الإحساس الذي أصابه؟ حضر في ذهني نصيحة جدتي والدة أمي.. إن كان الكذب ينجى فالصدق خير.. نصائحها بالنسبة لي وقتها فريدة من نوعها، فهي صاحبة الجمل العبقرية المختصرة والمفيدة: الحاجة اللي تخوفك اقضى عليها، واوعى تعيش خائف. أدركت أن الإنسان لابد أن يقوم ببتر جذور شعوره بالخوف وان يستقبل جميع الصدمات بمرونة حتى يستطيع إيجاد حل لها، وما كان لأبوعوض إلا أن يبتر جذور هذه المشكلة حتى لا يتورط في جريمة قد يتبعها فضيحة

فيتبعها تشرد أبناؤه ويتبعها عار، فيتبعه ذل، وتنتهي بلعنة كلعنة أوديب ولكنها بشكل آخر!

انتهى حديث ابوعوض وصديقه وكالعادة تعكر صفو حجر جوزته ودق الجوع طبول الحرب، وبطنه وشهيته طلبت الاستغاثة فغضب وبأعلى صوته:

- الأكل يا بهائم جعنا!!

وما إن انتهى من كلماته المحملة بالرمال والأتربة، إلا ووضعت (امل) الطبلية ووضعت حلة المحشي بأكملها ومعها فرخته المخصصة لحجم بلوعته، وفرخة الأم والأبناء وحدها من ناحية أخرى.. (عوض) يطمع دائما في فرخة أبيه.. جلست معهم للأكل، وعشقت ورك الفرخة خصوصا وهي محمرة.. بدأ الاشتباك دون سابق إنذار. أدهشتني طريقة (عوض) في التهام نصيبه ثم عزم بعدها على التهام نصيب والده، وظننت أن أبيه سيغضب ولكنه يحب مشاركة ابنه معه في الطعام، طريقة تناول (عوض) وأسلوبه في تقطيع قطعة الفرخة تشبه أبيه حتى في مضغه وبلعه للأكل، يضخم فمه بالأكل كأن مجاعات العالم تجمعت فيه. الابن دائما ما يتعلم من أبيه أسلوبه في الحديث وأسلوبه في التفكير وأسلوبه في تناول الطعام، نسى أبو عوض

أن يعلم ابنه ألا يأخذ من أمام الضيوف نصيبهم من الطعام، قد أخذ قطعتي المفضلة، انه يبتلع الأخضر واليابس.

وأثناء الغداء وانسجام الجميع في هذه الملحمة، وقع في يد (أبو عوض) صباع محشى (مش مستوي) سواد الليل حضر وقتها، غضب وصاح في زوجته وبناته، وأخذ يسبهم لما حدث! جميع الالوانات الغامقة والغامضة تجمعت وتبدلت واحدة تلو الأخرى أمام زوجته المسكينة، ترك الطعام ولم يكمل طعامه، على الرغم من أنه تناول ثمانين بالمائة من حلة المحشي، وحول فرخته لهيكل عظمي! تركتهم بعد تناولي لبعض أصابع المحشي وصعدت لدورنا العلوي وقابلتني أمي بترحاب شديد اللهجة:

- كنت فين يا جزمة؟!

قصصت عليها ما حدث، انزعجت جدا وبدت لي متأثرة بفعل أبو عوض الأحمق، فإنصاف أمي للحق دائما وللأصول، على الرغم من أن بينها وبين أم عوض مشكلة حدثت منذ فترة، سببها بعض قطرات الماء الساقطة من غسيلنا على غسيلها والتي تسببت في ابتلاله بالماء بعدما جف منها، وقتها حرب قامت ولم تنتهي إلا بتدخل جدي.. حينها قال لام عوض:

- غسيلك نشف سيباه ليه؟!

- عشان يتهوى ويتنفس يا حاج!
- أهو اختنق ومات!

يميز المرأة دائما أن لديها حكمة لا يعلم مغزاها غيرها، وجدي كان يميزه الحديث الطيب الذي أنهى به القصة على خير. فالكلمة الطيبة لها مفعول قوى جدا، تبقى في الأذهان ولا تنسى. حتما سأفعل مثل جدي فخير الكلام ما قل ودل وخير الكلام لابد وان يكون طيبا. وبعد انتهائي من شرح المشكلة التي حدثت وردة فعل أبو عوض تركت أمي بعد أن أبدت اعتراضها.. واتخذت قرار المذاكرة استعدادًا للنصف الآخر من الدراسة (الترم الثاني). عشقت مادة الدراسات الاجتماعية خصوصا دروس التاريخ والتي تحدثت عن الفتوحات الإسلامية والحروب والمقاومات التي حدثت بمصر، أثرت في كياني وبنيت وشكلت في ذهني تطلعات أخرى تمنيت معرفتها.

أستاذ (هاني) أستاذ التاريخ، لم يستطع إقناعي أن وعد بلفور عام ١٩١٧ كانت ضربة قوية قسمت ظهر البعير، تلك الشخصيات وقتها كانت لها السيطرة الكاملة بأن تعطى حقوق شعب لشعب آخر. وأعطاه الصحة والعافية أستاذ (هاني) عندما قال: إنه وعد من لا يملك لمن لا يستحق. رجل يبدو

قاسى يا صديقي العزيز وأشك في حبه لأولاده، وأنه يمارس فيهم شراسته وديكتاتوريته هكذا.. فإنه لا يملك شعور الأب، كلمات عبرت بها عن تأثيري بكل ما قاله أستاذ (عبده)، لا أخجل من التعبير لكنى اخجل من سماع مثل هذه الأحداث التي تمزق خلايا الأماني بداخلي.

وأكمل صديقي (عبده):

فجأة يا صديقي سمعت صراخ مكتوم ودوي انفجار بالبكاء يأتي من بعيد. خطر في مخيلتي أن (ابوعوض) يعاقب زوجته على صباع محشى!

نزلت مسرعا الخطوات قبل أمي، رأيت المشهد وبكت عيني منه! (أبوعوض) يضرب ابنته الكبيرة (أمل) أمام أخواتها ويصرخ فيها بأنها ستتزوج رغم أنفها بمن يحلو له أن يختاره شريك لها.. وتنطق شفتيها كلمة واحدة مصحوبة بآهات عالية: لا!

بعدها أتى والدي واتجه لأبو عوض وفض الجريمة التي سيرتكبها، وأمي أخذت تهدئ من روع أم عوض وبناتها.

-فيه إيه بس لكل ده؟

- عايز يجوز البت بالعافية!

أبى هو الآخر بدأ بتهدئة أبو عوض ليعود إدراكه وليعي

أن (أمـل) لن تستسـلم لعقليتـه القذرة، على الرغـم من اقتناعه وقناعته ودكتاتورية رأيه أنها ستنفذ ما يريد وستتزوج ابن مديره في العمـل. أبي حـاول إقناعه أن الرضا أهم من أي شيء، لم يهتم لأمر حديث والدي . . .

غـادرت أمـل الركن الـذي تعثرت فيـه واتجهـت (أمي) لها وقرروا إكمال الحديث في المطبخ، اجتماع سرى ومغلق بين النسوة، لابد فيه من قرار حاسم..

- هو يا بنتي الجواز وحش؟ ده سترة.
- لحد أكون بحبه يا أم عبده، مش لواحد أتجوزه بالعافية!
- يعنى انتِ ماتعرفيهوش؟!
- لا.. أبويا عايز يجوزه ليّا عشان مصالحه تمشي.
- أبوكِ ده راجل مجنون.. لمؤاخذة يا أم عوض!

أتابـع بشـغف وأنتقـل من حجـرة لأخـرى، ومعهـم لحظة بلحظة، تركتهـم ليكملوا حديثهم وذهبـت للحجرة المجاورة، لأجد أبي وأبو عوض يتحادثان:

- الراجل مديري ابنه زي الفل كفاية إنه مليونير.
- هو كل حاجة عندك فلوس، هاترمي بناتك بالفلوس؟
- والله دي حاجة تخصني محدش له علاقة!

ومن بعدهـا تركه أبي لأنه يثير غضبـه بحديثه العقيم والذي لا يغني ولا يثمن من جوع. مستمر حتى الآن حديث النسـوة، عدت إلى هناك فوجدت (عبير) وأمها يتحدثون..

- وماله يعنى أما تتجوزه، ما أنا قبلت بأخوه.

- انتِ اخترتِ حياتك وانتِ حرة، هي كمان لازم تختار حياتها.

بعلـو صوته المعروف أقسـم (أبـو عوض) طلاقًـا ثلاثيًا أنها ستتزوج ما اختاره لها، وعند سماع والدي ووالدتي هذا القسم.. قرروا العودة وتركهم يفعلون ما يريدون، وأخذتني وصعدت. يثـير ابوعوض دائما غضب أمي وتشـمئز مـن تصرفاته الغريبة، ويزداد جهله كلـما ازداد ديكتاتورية ويزداد افتراء كلما وجد من يجيبه بقبول فكرته، لعله يخاف على أولاده من المستقبل ويريد أن يعيشـوا في مأمن ويطمئن عليهم. لسـان حـال جدتي نطق بهذا، وارتـدت سريعـا لترفـض فكرة الإجبـار عـلى شيء دون رضا. (عبير) و(أمل) فكرتان متضادتان، ونقطه تحول ومن الأكيد أن حياتهم سـتتبدل. لم تكن صدفة أن تكـون (عبير) مضادة لفكرة أختهـا، لعل لديهـا أحلام تريـد تحقيقها وتعلم تمامـا أن المال له تأثير كبير في هذه الظروف والإمكانيات تتحكم. أحيانا يتطلب لتحقيـق الهـدف إمكانيـات بجانب الاجتهـاد والثقـة بالنفس.

وفي أحيان أخرى يتغلب الاجتهاد والثقة بالنفس على المال فلا يصبح له قيمة بعد الوصول للهدف، وتدرك (أمل) تمامًا أن أحلامها بسيطة، ومن الأكيد أنها ستنتصر على تلك الأزمة.. لم تستحق (أم عوض) وأبنائها كل هذه القسوة التي يوزعها عليهم كل حين، ولن يستحق أبو عوض امتلاك هؤلاء الطيبين.

مر هذا الوقت العصيب سريعا.. لكنه بدا بطيئًا داخل النفوس، بطئه حاد وتسبب في جروح كثيرة، ولن تلتئم بسهولة. وفى صباح اليوم التالي، إذ فجأة أفراح وزغاريد وأغاني أسمعها في شقة جارنا (أبوعوض) وتتعالى أصوات التصفيق. سعيد جدا بهذه اللحظات، تبث فينا فرحة عارمة تجدد بداخلنا المقاومة، فوجئت بعقد قران أمل وعبير، نزلت للدور السفلي لأرى ردود الأفعال، لاحظت عند دخولي جلوس (أمل) وحولها أقاربها وأصدقائها.. الرجال في الجهة المقابلة من الحجرة، المكان يسع الكثير، بدأت في التفكير للحظات، كيف تم كل شيء سريعا؟! واتضح لي فيما بعد أن (أبوعوض) دبّر وخطط لكل شيء في غمضة عين.

بدأ (أبو عوض) استقبال أهل العريس وبدأ بالترحيب بوالده (مديره في العمل) وأم العريس وأخواته. اندهشت من هذا

المشـهد، أن يسـتغنى أب عن ابنتيه في يوم واحد أمر مسـتحيل! خصوصًـا أنه يعلم تمام العلم أن إحدهمـا لن تحب من تتزوجه. اخترقـت جمـوع الحضور، وزجاجـات الصودا تملأ المـكان بينما الكنافة والبسبوسـة وكل أنواع الحلوى اللذيذة تنتشر أسرع من الجمرة الخبيثة وقتها، وأفرع النور تزين المكان بألوانها الصاخبة.

لمحت بطرف عيني أثناء سـيرى وسـط الحضـور، فتاة لأول مـرة أراها ولا أعلم هل هـي من أقارب العريس أم العروسـة، قالت لفتاة تتحدث معها:

- قال إيه.. مش راضية بيه؟!

- خايبة.. ومش عارفة مصلحتها!

- طب أتجوزه أنا.

- ده كفاية الـ...

ابتدأت الموسيقى تتعالى والزغاريد ولم أسمع الحديث كاملا، أكملـت التجوال لأرى أم العريس تقـول لأم عوض "علمت أنها والدة العريس من حديثها"

- يا أختي بنتك مالها.. قرفانة ليه؟!

- قرفانـة؟! ده كلام بـردو.. تلاقيهـا بـس زعلانـة عشـان هاتسيبنا.

– تسيبكوا؟! إزاي واحنا موجودين.. ماهي هاتعمل هناك زي ما بتعمل هنا..

أم عـوض تندهش للحديث المثير للشـفقة عـلى ابنتها (أمل) وأم العريس تكمل بخ سمها القاتل في أذن أم عوض:

– شوفي عبير عسل إزاي.

– معاندهاش دم.

– حاسة إنها بنتي اللي مخالفتهاش!

أم عوض تضحك بابتسـامة مليئة بالتوعد وتعلنها صراحةً: بكرة تطلع عينيكِ متقلقيش.

أكملـت الجولة وكالعادة رأيـت (عوض) يجلس في ركن من أركانه المخفية ويتناول البسبوسة والكنافة وأمامه صحن ممتلئ، اعلى من قمة جبل افريست..

رأيـت السـعادة تغمـر وجـه (ابوعـوض) لتنفيـذه مـا أراد، ومديره في العمل سـعيد وفى قمة انبساطه، بينما (عبير) تطير من الفرحـة و(أمل) تطير من داخلهـا الفرحة. موعد زفافهم غدًا.. الليلة الكبيرة.. ليلة رحيل (أمل) رغمًا عنها وسـط رجل وعائلة لا ترغـب الرحيل لها.. غدًا سـترحل (عبير) إلى الأموال والمتاع الذي تظن أنها سـتلقاه وأنها السـعادة. أضحكتني جدتي بعد أن

صعدنا لدورنا العلوي بقولها: بكرة نقعد جنب الحيطة ونسمع الزيطة!

جدي وقتها قابلها بجملة لخصت الوضع: الراجل اللي يبيع عياله عشان فلوس راجل خسيس.

****

تثاءبت وظن أستاذ (عبده) أنى أريد أن أخلد إلى النوم، فتوقف وطلب منى أن ننهي الجلسة ولكنى تمسكت برأيي، أصرَّت نفسي للاستماع للنهاية. أكمل وبداخله شك أنى اجلس كأمل رغمًا عنى:

ما إن مرت بضعة أيام على رحيل العروسين، وصعدت (أم عوض) لجدتي تشتكي من سوء معاملة والدة العريس لأمل. يسمع الله دائما أنين المشتكين هو أعلم بنا وبحالنا هو يعفو عنا ويقينا شرور أنفسنا، الله قادر أن يبدل أنفسنا في طرفة عين، الله يحب العبد اللحوح واللجوء إليه، سينقذ الله براءة أحلامنا الصغيرة من سوء الدنيا المريرة، وسنلجأ للسجود والدعاء وسنهمس في الأرض ليسمعنا من في السماء، خذ بأيدينا يا رب، فنحن منك وإليك نعود دون شقاء.

اشتكت (أم عوض) لجدتي، أنه في ثاني أيام العرس، صعدت

والـدة العريس عند ابنها وجلسـت طويلا وبـدأت تتحدث مع (أمل) بطريقة ليسـت لطيفة، غادرت (أمـل) لغرفتها وأغلقت البـاب حتـى لا يثير أحـد غضبهـا، وبـدأت أم العريـس بألقاء الكلـمات الغـير مهذبة حتى أشـعلت بـين ابنها وزوجتـه نار لا تنطفـئ.. فبدأ العريـس بتهديد (أمل) مـن وراء الباب، وانتهى الشـجار بتحطيمه الباب واعتـدى على أمل بالضرب، أتت أمل في الليـل باكيـة ورفض والدهـا الخروج وترك بيتها لأي سـبب كان، وأمرهـا بالعـودة خصوصـا أنها أتـت بغير علـم زوجها. بدأت في استيعاب الجريمة التي حدثت وبدأت أتعجب من ردة فعـل الأب، وحزنـت كثيرا لعجز الأم عن فعـل شيء، حتى أن البنت لا تملك أخ رجلا كبير تحتمي به ويحميها، ويدافع عنها.

أكملت (أم عـوض) القصة لجدتي، وأم العريس لم تتغير هي هي، نفسها التي تعامل ابنتها امل معاملة سيئة..

أحيانـا تميل أمهـات الزوج للـكلام الممزوج بالمـدح والذي يشعرها بانها القطعة الذهبية في حياتهم، ومن الواضح أن (عبير) دائما ما تلقى الكلام المعسـول لآم زوجهـا في وجهها ومن وراء ظهرها تبغضها! أتذكر مرة كنت اجلس وألعب مع (عوض) في شقتهم، وعبير أتت زيارة لوالدتها وقصت وقتها ما يحدث بينها

وبـين أم زوجها (حماتها) وذم عبير لهـا لم ينتهي حتى قالت (ربنا يأخذها). من الصعب أن يتحول أنسـان من أنسان يقذف كلام طيب الى أنسـان يقذف قوالب طوب وعبير تمتلك براعة وأبداع في التحول.

رفـضي لطريقة (عبير) مقارنـةً بطريقة امل والتي من اللحظة الأولى وهي تكره فكرة الزواج من شـخص لا تحبه دون رضا.. فكيف تحب شيء أجبرت عليه من البداية؟ عندما تجبر يا صديقي على شيء ويجعلونك تحبه رغما عنك، تجد نفسـك ترفضه تلقائيا وعندمـا ترفضه حتما سـتخطط لتثور عليه وعندما تثور سـتجد نفسـك تختار مـن تلقاء نفسـك الأفضـل ولن يجـبرك أحد مرة أخرى على الاختيار.

سرعان ما انتهت إجازة نصف العام، كانت مليئة بالأحداث التي أثارت فكرى وانشـغلت بها.. وقبل ذهابي لعامي الدراسي الجديـد بيومـين، حـدث شيء مهـم ولعلـه سـيغير في ترتيـب الأحداث بين (أمل) ووالدها ووالدتها.. فبداية المناوشـات بين (أمل) وزوجها وأمه المرة السابقة سبب في تحول مسار تفكيرها، فوجدت نفسـها لن تستفيد بشيء إذا انقلبت وأعلنت عصيانها، لعلها فكرت مرارا وتكرارا، لا شيء جديد سيحدث ولابد وأن

تتأقلم وتساعد نفسها على اجتياز هذه المحنة، فاستقرت نفسها ولجأت للهدوء واستمرت حياتها وتقبلتها بحلوها ومرها، خصوصًا بعد أن اكتشفت أنها حامل.

وبعد أن علمت أم زوجها هذا الخبر السار فرحت كثيرا، نقلًا على لسان (أمل) أثناء حكيها لأمها، وحكى أمها لجدتي. وأخيرا حققت امل المعادلة الصعبة، وأخذت أم زوجها في اعتبارها دائما أن (أمل) يمكنها في أي وقت الانقلاب والثورة على نظامها وأدركت أيضا أن تيسير الحياة وأمورها ليس ضعفا، أنما هو استيعاب أن الحياة ولابد وأن تدور حتى تكتمل فكرة الاستقرار.

أما عن (عبير) فبعد أخبارها بحمل أختها، بدأت الغيرة تدب حصون الحقد بداخلها وتدمر حياتها، وبدأ زوجها في اللجوء بعد فترة للأطباء، وبدأت أم زوجها تشجع ابنها على الإسراع لإنجاب طفل يملأ دنيته، وحب عبير للمال أصبح ليس له قيمة وبدلًا من حبها لزوجها بدأ الكره تظهر ملامحه له ولأمه. أذكرك يا عزيزي أن (عبير) رفضت الثورة على نظام والدها وأطاعته لذلك وعندما لجأت للطمع وظنت أنها استحوذت على كل شيء وأن حياتها ستظل في نعيم مستقر، ومع أول مطب صدمت به

ثار عليها من أحبتهم وأحبت أموالهم، فتدريجيًا حياتها أصبحت ليست لها معنى.. لأنها منذ البداية مستسلمة.

عدنا للمدرسة وعادت الدروس والاستيقاظ مبكرا، عادت فسحة المدرسة واللعب والجري وحصص الألعاب وبائع الحرنكش وكوز العسل والدوم وصراخ أمي لأذاكر ولبلكونة شارعنا المحببة لقلبي.. كل هذا قد عاد من جديد..

عادت مريلة المدرسة بتفاصيلها المملة، عادت سندوتشات الجبنة النستو التي لا تحبني، عادت مباريات الأهلي الشيقة، عاد كل شيء وانقطعت إجازة نصف العام بتفاصيلها وإرهاصاتها. أتذكر أنه قبل ذهابي للمدرسة بيوم جلست مع جدي والد أمي لنلعب الكوتشينة، براعته في رمي الكروت نالت إعجابي، لكن دائما حظي يسبق حظه بمراحل.. كنت دائم الاستحواذ على ورقة الولد التي تأكل الأخضر واليابس.. لعل هذه الورقة لو حقيقية وأدركها الناس لفعلوا بها الكثير. تحولك من خاسر لفائز، ورقة واحدة بها تستحوذ على ورق الدنيا ورقة واحدة تستطيع بها انتحال شخصية المنقذ إذا أحسنت استعمالها. خسر جدي كعادته وضحكنا كثيرا وبعدها شاهدنا برنامج مصطفى محمود، قبلها كانت حلقة الشيخ الشعراوي الشيقة، ليأتي بعده

تغطيـة لمجلس الشـعب، وهنا بـدأ تفكيري يذهب تجـاه المنطقة المحظورة..

ماذا يعنى مجلس الشعب؟!

كنـت أظـن دائمًا أنه أحـد مراكز تعليم السياسـة أو أنه درس خصـوصي يؤهـل السياسـيين للعمـل بالسياسـة أو أنـه أحـد الاجتماعات التي تعتمد على الفضفضة.. والمقصود بالفضفضة هنـا إزالـة الحمل عـن المواطن في أي شـكوى تزعجـه وحلها، تدارك عقلي وقتها أن القضية الفلسـطينية لن تحل إلا إذا أذِن الله وعلمت أن (محمد الدرة) عند ربه يرزق وعلمت وقتها أن هناك مـن جعلـوه في غيابـة الجب! بدأت نقطة سـوداء تظهـر في فترة الصبـي لعل هـذه النقطة لن تمحى، ومن الأكيد أنها سـتتضخم مع الوقت ومع صراعات الحياة وصراعات البشر وبعد القريب وخسـارة الأشـياء والتجـارب الناجحـة والتجـارب المخزلـة والتجارب الإيجابية.. كنت انتظر دائما ماذا سيحدث بعد؟

التطفل سمة من السمات الرهيبة التي قد تطيح بصاحبها بعيدا.

وما إن انتهيت أنا وجدي من جلستنا التي أثمرت بنوم جدي وغفوتـه وتركي وحـدي، أيقظته وقتها وأبلغتـه بالرحيل وبعد عـودتي من زيـارة جدي والد أمي وجدتها تحـضر الطعام وبدأنا

في التناول. زغاريد في بيت (أم سمير) وتهاني من أهل الشارع ونطق حمد الله على السلامة أكثر من مرة، تركت الأكل سريعا والجميع نهض ليرى ماذا يحدث؟ أشبه بكدرات السينما، براعة التصوير هنا تتطلب الاستعانة بكاميرا عالية الجودة.. اللحظات الصادمة كثيرة، واللحظات الحاسمة ما أكثرها، ولحظات الندم ما أشقاها..

ولحظة نطق جدتي بخروج (عادل) ابن (أم سمير) من السجن بالسلامة، فيها النبض زاد، دقات القلب عَلا صوتها.. نزول (أم سمير) مسرعة لتحضن ابنها الغائب عنها منذ سنوات، هرولة الأب ليحمل عن ابنه عبء الزمن وليطمئنه أنه بجانبه.. هروب نظرات (حلمي) نحوه ولاشتياق جفون عينيه لأخيه (سمير) وبكائه المثير، البلكونة نقلت الكدر ولم ترحم دموع أعيننا وذكرياتنا وفراق أحبابنا.

عاد (عادل) واستقبله أهل الشارع، لم يكن في الحسبان خروجه في هذا التوقيت، مفاجأة تسمع فيها دوى انفجار الخوف داخل (شاهندا) الوحيدة والتي لم تظهر في كدر يحمل من المعاني الكثير. حينها خطر ببالي نفس السؤال الذي يدور في خلدك والذي يراود شهيقك وزفيرك، والذي يرهق لياقة وحركة إحساسك!

آخـر الليلـة

أخـذ أسـتاذ (عبـده) الهـدوء دربًا، أرهـق من كثـرة الحكي، وتذكـره للتفاصيـل والتي تحدث تغيرات على مسـتوى القصة. انتقـل مـن جلسـته على كـرسي مكتبـه الى المنضدة التـي اجلس عليها، وقتها تنحيت مسـاحة صغيرة كي يجلس بجانبي، اسـند رأسـه على الحائـط.. تركته يستنشـق بعـض الهواء كـي يكمل، أغمـض عينيه وظننت انه سـيتركني وينام، أخـذت انظر له ولا أستطيع قول شيء، لعله يفكر ولن أستطيع اقتحام فكره، ولعل وتر أفكاره يعزف بداخله لحن جديد وذكريات جديدة، قد تساعده في استكمال زفرات الأحداث.

إذ فجـأة انقطـع التيـار الكهربائـي، ارتبكت بعـض الشيء، فأمسـكت بقدمه، وقتها فزع وظن أن هناك شيء حدث، لم أرى رد فعل وجهه وتعبيراته وقتها، غير أنى سمعته يقول لي:

– خايف من الضلمة؟ متقلقلش هتاخد عليها.

لم أعـي ما يقول غير أنى شرحت الموقف بأني لم أخف، لكنى تفاجأت. سـمعنا قرآن الفجر، وقتهـا اقترب موعد انتهاء الليلة الشيقة والمثيرة والتي لم أعش مثل أجوائها هذه من قبل. تنهيدته جعلتنـي أدعـو الله أن يبطـئ حركـة الدقائق كـي لا تنتهي هذه الجلسـة، كان على علم بأن انقطاع التيار الكهربائي قد يسـتغرق

حتى الصباح، واتضح أنها ليست أول مرة يحدث هذا.. وضعني أستاذ عبده وسط اختيارين إما انتظار الغد لنكمل أو أن نكمل والتيار منقطع، اخترت الظلمة لحين ظهور نقطة نور تضيء لنا عتمتنا، اخترت الظلمة لثقتي أن النور سيعود من جديد.. الظلمة من الإمكان أن تكون بداية لظهور الحقيقة، أو لنجاح قادم، أو لفرح قد اقترب.

الضيق والظلمة واستحكام الحلقات، فرجها الاستعانة بالصبر وتحمل الشدائد، ولعله اختبار من الله ولعلها ستفرج بعدما كنت أظنها لن تفرج. بدأ أستاذ (عبده) استكمال الحكاية في الظلمة، وبدأت الاستماع له:

اقتنعت بكل ما مضى حتى يكون سبب في كتابة روايتي، لن يدوم العيش في وسط الدروب مختبأ، أحببت فتاة ومعها تلوت أفضل معاني الحب ورتلت بأحساسها الدافئ، وأيقنت أن مشاعري تتحرك لمن يستحق، أحببتها كثيرا، فضلتها على كل شيء وفى أول لقاء جمعنا كنا في غاية الخجل..

- عيونك جميلة.
- مش أجمل من عيونك.
- بس بقى عشان بتكسف

- حد يتكسف من مرايته؟
-حبتيني ليه؟
-لقيت في مشاعرك الأمان.. وانتَ؟
-أكذب عليكِ ولا أقولك الحقيقة؟!
- قول اللي انت حاسه.
- قلبك شبه قلبي.

صدقت في كل كلمة أخرجتها من نبوع قلبي، استطعمها لساني، أشتاق لمذاق نطقها مرة أخرى.. ابنة جيراننا التي أحببتها منذ الطفولة، وبكامل قواي العقلية اتخذتها رفيقة لقلبي.. وبعد أيام وليالي وأشهر تجاهلنا فيها ما يسيء الإحساس، وفيها قِبلتنا واحدة، وحصادنا من زراعة الحب يكفي مئات السنين.

تحول كل هذا فجأة لأرضا بور، صراع وأحاديث مملة، واتضح لي بعد ذلك أنها أجبرت على شخص أخر يريد الزواج منها، أكبر منها ومنى سنا، يملأ سرواله المال وفى كامل استعداده لشراء الأرض بثمن باهظ.. لم أتخيل النهاية، فمن ناحية أخرى اتخذوا إجراءات الخطوبة، هي لم تبح لي بشيء قط، اكتشافي لجميع ما حدث كان محض الصدفة، ويوما ما وأثناء عودتي ليلا الى المنزل رأيتها هي وهو بجانب بعضهما البعض، رأيتهم في زي العُرس!

لم أبح لأحد بارتباطي بها وحبي لها، حتى أصدقاء صغري لم يعلموا شيئا، ذهبت وقلبي الى بلكونتي وأخذت أتذكر ودموع الحب الصادق يفوح منها عطر العشق والأماني. استسلمت واستسلم قلبي، وأظنها أول صدمة لقلبي في الحياة، من أول حب في حياتي.. لم أخدع فيها فهي بيعت لآخر. تركت رسالة لها مع أحد أصدقائها ذات مرة وبعدما عاش قلبي جرح عميق لم يلتئم بعد، نسخت الرسالة لأرسل لها واحدة، وأحتفظ لي بواحدة.

****

نهض وقتها أستاذ (عبده) والتيار لازال منقطع، وحدثني وهو يتجه الى مكتبه، وأثناء سيره على مهل وهو يتحسس الطريق حتى يصل قال:

– أحتفظ بتلك الرسالة حتى الآن في ملفي الخاص.. أستطيع إخراج الرسالة في الظلام، حبي لها لازال ينير بصيرتي، وحتى وإن فقدت الورقة.. مستحيل أن يفقد القلب إحساس وصدق قد كتبه بنفسه.

سألته عن الرسالة وكلماتها وتفاصيلها؟ إجابته دائما يقينية ويغلفها بذكرياته الجميلة واسترسل:

– قد تبدو سطورها بسيطة، لكنها كلمات كتبتها بصميم قلبي بخطوط بارزة، حتى إن أخرجوا قلبي يوما سيرونها محفورة كما هي.. لم أنسها: "أحب فيكي روح الحياة وبراءة الطفل البشوش ولون أحلامك المزهرة، أحب فيكي أركان قلبك فهي محرابي الوحيد في عالمٍ يضيق بنا كل دقيقة".

أنينه لن يتوقف، حبه يحييه، أمله يراوده، ليتك لم تحكي من البداية يا صديقي (عبده).. ألمك سيشفى حتما. أردت إخراجه والذهاب به إلى مكان آخر لأعينه على نسيان النقطة التي يقف عندها، لكن ذكاءه لم يترك لي مجال، وأخذ يقص:

وكيف يتم بيع فتاة صغيرة على سن الزواج؟ وكيف يقتل مستقبل فتاة بشيء لم تختاره بإراداتها؟! فرق بيننا رحيلي من الشارع وتفرقت بنا السبل فلم نلتقي منذ فترة بعيدة.عند تذكري مثل هذا الحب وسني الصغير أضحك كثيرا، لم أحزن بعد، يمكنك القول أنه كان اختبار لبعض مشاعري ونجحت فيه، كلما أتذكر مثل هذه الأيام ابتسامتي لم تفارق وجهي. بعد فترة أراد (أبي) تأمين مستقبلنا وجمع شملنا، فاشترى قطعة أرض وتم بنائها، يومها أبي أتى ليلًا وحدث (أمي) عن المدة القصيرة التي بعدها سنترك فيها المنطقة والشارع. أسبوعا واحدا فقط،

صعقـت حينها، أحـلام الطفولة والأيام الجميلـة تنتهي. لم أكن باختيـاري أن أجلـس هنـا وحـدي أو أثور على فكـرة الرحيل، استسـلمت للأمر وما كان أمامي ألا وداع المنطقة في هذه الفترة القصيرة وبطريقتي الخاصة.

من الصعب يا صديقي أن تترك ذكرياتك وأصدقائك وحب سنك الجميل وشقاوة صغرك وضحكك وترحل، من الصعب أن الجميع حولك سعيد بالانتقال لحياة ومستوى آخر قد يكون مفيد وأنت وحدك حزين ولا يشعر بك أحد، سأحاول ألا يكون الأمر سلبا على نفسي. لجأت الى بلكونتي وجلست على كرسيها وأخـذت أحدق فيها وكأن أول مرة امكث في بسـتانها، أخذت انظر للأركان بشغف، حدثت سور البلكونة كما أحدثك، تحمل ثقـلي وشـخبطة قلمي عـلى جدرانه، نظـرت طويلا إلى سـقف بلكونتنا الأبيض فما كان يشـوبه شـائبة، وما وجدت أحد بقلب ابيض كبياض لونه، أخذت أحدث نفسي وألومها: ماذا سنفعل في المنطقة الجديدة؟! ابتسمت حينها وتوالت الأسئلة العبثية..

هـل سـأجد (أم عبـاس) أخرى؟ هل سـأجد عـم (طالب) آخـر؟ هـل سـأجد مشـاجرات ممتعـة كهـذه؟ هـل هنـاك (أبو عـوض) و (أم عـوض) كهؤلاء؟ هل سـأجد (شريـف) آخر؟

و(سيد) آخر و(مصاصة)؟ هل سأجد سور يتحملني كهذا. ما عدت أجلس مع جدي طويلا مرة ثانية، وما عدت أطلب من جدتي أن تحضر لي القليل من (الماء بالسكر) أحبها كثيرا. ما عدت أنام على سرير جدي وفى أحضانه، وما عدت أشاهد معه مجلس الشعب، وما عدت أراه يبصق على مؤيدين الرئيس، وما عدت ألعب بالنحلة، فلن أجد بلاط آخر يتحمل ضربة سن النحلة عليه.. ما عدت أتحدث مع (كريم) جارنا وما عاد أبى يذهب بي إلى أصدقائه لنقضى معهم وقتًا ممتعًا، وما عدت أتوسل لأمي أن أذهب وألعب الكرة مع أصدقائي المفضلين.

أمر خطير يتداركه عقلي، نظرت للشارع حينها بشوق ونظرت لكبل الكهرباء المتهالك المتواجد على ناصية شارعنا.. نظرت لبلكونات الجيران.. نظرت لناصية الشارع المليئة بالشباب التي استنفذت طاقتهم الأيام مع الظروف التي مروا بها.. نظرت لأبعد نقطة بالشارع، سأفتقد النظر لزحام محل عصير القصب، سأفتقد بقالة (أم عفاف) وأبنائها الطيبين، سأفتقد السجود في مسجد (الرحمن) سأفتقد سماع صوت أذان الله الصادر من روعة صوت الشيخ (عادل)، سأفتقد صوت الشيخ (سامي) ودروس الفقه التي تهدينا الى الصراط المستقيم، وطعم شهر رمضان

بشارعنا، صلاة التراويح وأذان المغرب، ساعة الإفطار، بائع العرقسوس، صلاة التهجد بالليل، سأشتاق لشرب السوبيا، سأشتاق للأفراح الشعبية، سأشتاق للمذاكرة مع أصدقائي، سأشتاق لبرنامج الأحد (حدث بالفعل) والأربعاء (اخترنالك) كل شيء من الممكن أن يعود أدراجه ثانيا وحتما سيكون طعمه مختلفًا.

كنت أؤمن بفكرة أن منطقتك قطعة منك، فيها تعيش وتحزن وتفرح، ترعرعت وتقاسمت كل شيء مع الأحباب. حدثت نفسي: صبرا بعده فرج. قطع (عمي) حبل ذكرياتي وناداني فجأة وأمرني أن أحضر له ماءً ليشرب، بعدها توجهت لباب الشقة، هناك أحد يطرق الباب، فتحت وإذا به (عادل) ابن (أبو سمير). أتى لزيارة (عمى) والجلوس معه بضع دقائق، لكن جلسة الأصدقاء ربما تستغرق دقائق وساعات.. عندما رأيته ركزت مع نظرات عينيه، لم تكن سعيدة وفى حيرة من أمرها، ابتسامته العريضة تغطي على آلامه وإحساسه بالخزي.. ألقى عليَّ السلام، وعند سماع (عمي) لصوته قام واستقبله واصطحبني معه الى حجرة (عمي) لأجلس معهم، وقتها رفض (عمي) جلوسي في أحاديث الكبار، لكن (عادل) رفض ذهابي لمكان آخر. جلس وبجواره (عمي) وأثناء حديثهم نظرة

عمـي له رأيتها عميقة، يكاد يشـفق عليه مـن صمت عينيه، بدء (عـادل) الفضفضـة، صـدا العقل والسلسـلة التـي أغلقت بها أبواب قلبه، حاولت انتزاع مفاتيح الصمت وركود الإحساس، انتـزاع جـذور الجبن والخـوف وأصدر قرار التنحـي عن كل ما يؤدى الى كره الحياة، وقتها عاد له صوابه وترك كل شيء كما هو.

بادره عمي بسـؤاله عما سـيفعله؟ وما سـينوى فعلـه لتنظيم حركـة مرور طموحاتـه التـي اندثـرت؟ ردوده الإيجابية ألغت سـلبية التفكـير في أي شيء قـد تظنه فيـه من انتقـام أو شر قادم سـينفذه، حديثه لم يكن يوحي بحرف واحد يدل على أنه لازال يفكر في اضطراب يحدثه.. انطوى وعزم على العمل، لم يحدد أيّ عمل يباغت مستقبله، أنما يريد بناءً قويًّا لا يهدم.. فكرة ترشيحه لنية الزواج والاستقرار قيمة بالنسبة لسنه، ولم يفكر لحظة فيمن سيرتضى الزواج منه وهو مسجون سابق.. ألغى ما مضى وأقبل على ما هو آت، بنفس مطمئنة. كنت اسمع حديثه مع عمي ولا أعلم لأي منقلب سينقلب، قراءة (عمي) بما أخبره (عادل) به لم يصدقها، وواجهه وقتها بالصراحة البالغة عندما قال له:

– نـاوي عـلى إيه يا عـادل؟ الـكلام ده تقولـه لواحد غريب عنك ومايعرفكش!

أنكـر كل الثوابت المؤدية لسـوء الظـن ولازال (عمى) ينكر الثوابت المؤدية لحسـن الظن بتفكـيره، وعلى حد وصف عمى: إنه ليس سهلا وتفكيره ماكر.

كـما سرق العمـر مـن (عادل) لابـد وان يـسرق الفرص من الحيـاة لينال نصيبه من الدنيا كصيد الوحوش في البرية! (عمى) لن يصدق أي شيء سـوى أن (عادل) سـيحارب بـكل أدواته. اندهشـت كثـيرا من القوة التـي أرى ذلك الغريق فيها، تمسـكه بحبـل النجـاة يعيـده للحياة مرتـين، مـرة عندما انتـوى الزواج والأخـرى عندمـا ابلغ (عمـى) عن كل مـا يدور في خلـده، وعلى لسانه.

الأمـور تبـدو جيـدة، حالتي النفسـية لابـد وأن تحـاط بنوع مـن الهـواء النقي، استنشـاق الروائـح الكريهة ليـس مطلوبًا في هـذه الفترة، خـوض المعارك لم يكن الـدرب المقصود حتى وإن كنت حزينا وأسـكن في جحـور الهم، ليس بإمـكاني تغيير شيء مما حدث، وما حدث كان ماضي وما أشعر به هو الحاضر الذي لابد أن يتحقق. لازال (عمى) تباغته فكرة عدم التصديق ولكنه ربط حديثه الآن بأنه تغيير جذري، وللسـجن تأثيره الكبير على عوالم نفسيته الخفية، واسترسل (عادل):

– لم يكـن بإمـكاني فعل أكثر من شيء، لابـد من التركيز على شيء واحـد، الاكتفاء الاجتماعي، حرمت من أبي وأمي وإخوتي لفـترة، أريـد الإحسـاس الدائم بالأمـان، العزلة ليسـت طريق النهـوض، إنـما أن تسـلك سـبيلًا آخرًا نحـو الظلمـة. الاكتفاء العاطفـي حرمت الحـب والإحسـاس ببذور الرضـا تغرس في قلبي لتنبـت أوراق الصدق المزهرة.. الاكتفـاء الذاتي، حاولت مـرارا وتكرارا احتضـان نفسي وأخذهـا لبعيد عن هـذا العالم، حرمـت نفـسي من نفـسي حرمـت بث طاقتـي نحو هـدفي كي أصبح طموح كأي أنسـان، طاقتي التي بذلت في تفتيت صخور السـجن تكفـي لبناء مدينة للنسـيان، أضع فيهـا كل ما أهلكني وأحاطني بالأذى، تشييد جدار عازل يحميني ويحمى طموحاتي أصعب بكثير من بناء مدينة طموحاتها خاوية.

جلست في كل كلمة سمعتها.. وأتذكر حروفها تترتب في أذني حرفًا تلو الآخر، وكأني لم أسمعها من قديم الزمان وذكراها كان بالأمـس. لم ابلغ من العمر ما يكفي لأن اشـعر بفرد في المجتمع إحسـاس الظلم تغلغل في أعماق نفسـه ويشـعر بهبـوط حاد في شـخصيته المسـتقلة. ربما (عادل) يسـعى لشيء لم يكن بحسبان أحد وربما يستدعى ذكريات ماضيه لتعيده للحاضر بقوة.

****

أستاذ (عبده) مع كل كلمة عينيه تفيض بالدموع، لا أعرف سبب ما يحدث ولكنه ومع اختلاف الأحداث، ربما أحس واستوعب كل كلمة تلقتها مراكز السمع عنده واسترسل:

تعلم يا صديقي أن جلسة (عادل وعمي) بلغت الساعات وأتت بكثير من الاستجوابات.. وعلى لسان (عادل):

-عندما عدت من فترة السجن وبالأخص عندما وصلت لبيتنا، وكأني لم أشاهده من قبل، تلك الجدران التي تحدثت لها كثيرا تلك الجدران التي أنصتت لكل أحاديثي الفارغة، وكآبة درجات السلم عند صعودي، كانت توحي بشيء خبيث قد اقتحم بيتنا. همسات أبي وأمي وإخوتي عند عودتي همسات مرعبة، أذني ترفض سماع غير دوي انفجار ما قد يحدث.. استقبلني (حلمي) وأخذ يضمني لصدره كطفل بات جائعا دون والدته، كعصفور تأثر بجرح وسقط مكسور الجناح ولم يستطيع الطير، عيناه مملوءتان بالحكايات، نبضات قلبه تتصارع بداخله للإفصاح عن شيء، برودة يداه وتعرقها تستفز دفئ قلبي تجاهه لأسأله: كيف حالك يا أخي؟ الحمد لله خرجت من فمه كخروج الروح من الجسد. ليشوِّش والدي بكلماته ذلك الشعور الغريب الذي يبعث منه ومني:

- حمد الله على سلامتك يا عادل

أخذتنا أقدامنا نحو شقة والدي الخاصة، دخلوا قبلي حتى أنتهي من ترك حذائي وخلعه أمام الباب. دخلت من باب الشقة وكأني أرى لوحه غريبة الطابع، مختلفة الألوان والصخب ينبع من أركانها..

- نورت يابني بيتك.

أمي لازالت شمسي التي لم يغب صدق شروقها ولا حدَّة غروبها.. الوحيدة التي استقرت بداخلي ومعها سكنت الطمأنينة بيوتها المندثرة. إذ فجأة ومن بعيد وكأني في الجهة المقابلة من نهر متسع وحرارة الشمس تزيدني إرهاق، رأيت من الجهة المقابلة (شاهندا) ابنة فرج الحلواني. سعيت جاهدا أن اهرب بنظراتي نحوها، وان كانت غريقة في ذلك النهر لم أسعى لإنقاذها، وإن كنت حبل النجاة الوحيد لها سأتركها! صدقني يا صديقي لم أخدع يوما في قراءة عيون شخص حدثني وحدثته، لم اخدع حتى في إحساس راودني.

بات (عادل) يتحدث مع (عمي) طيلة الجلسة حتى كاد النوم أن يسيطر على أحلام يقظتي، وما كانت يقظتي سوى لأرى الحقيقة.. استرسل (عادل) قائلا:

– علمت بإطلالة (شاهندا) أن (حلمي) قد تزوجها، ميوله الرديئة في اختيار المعادن خاصية معه منذ ولادته، باركت بالطبع لهما.. وبدأ والدي باستدعاء كل ما قال وقيل وعن سبب الزواج وقبول الزواج، ولم أسعى حتى لاصطناع فرحة أمامهم أو حتى رد فعل على تصرفهم الميؤوس منه، ولعلهم لا يحسنون صنعا.

وبدأ (عمى) يسأل صديقه:

– لماذا قص والدك كل هذا عليك؟! من دون إنذار.. لعله يقول شيء بذلك.

– ماذا يقول؟! أيقول أنى سأعاتبهم على تصرفهم؟ أيقول إنه خائف لأنتقم مما فعلته هذه العائلة الحمقاء؟! أيقول أنى سأغضب من تمسك أخى بصدأ المعادن؟ أيقول أنى تركت على أبواب السجن طموحات عشت استهدفها؟ أيقول أن ما بقي مني هي أشلاء لا قيمة لها سوى أن تدفن ويُهال عليها التراب؟!

لم يستطيع السيطرة على غضب إحساسه الدائم بالعزلة والظلم، لم يستطع السيطرة على غرفة دموع عينيه ولو حتى بآهة تفرج حزنه. شد (عمي) من أزره ورفض مبدئيا صخب ترتيب أولويات عقله. رفض (عادل) مبدأ المواساة، لأنه وبالتحديد لم يرد العبث مع ماضي حتما سيقضي عليه ولا يريد الإحساس

بالعجـز. بـدأ بتوجيه الحديث (لعمى) إن شـعوره تجاههم يكاد يكـون منعدم، شـعور الكره نحوهم أبيح تنفيـذه، لكن جدران السـجن علمته تسـيير الأحداث، والانحدار نحـو اتجاه الموجة التي تأخذه لبر الأمان.

– مـر يوم وثاني وثالـث وثلاثون يوما وانا أحـاول التعايش مـع الوضع، أحاول دبلجـة الأحداث بلغتـي الخاصة وقبل أن آتـى وأتحدث إليك، كان يحدثني أبى عن فكرة الزواج وكالعادة طلبـت منـه ترشـيح الزوجة التـي لا صدأ فيهـا ولا ملف لها في خيانـات الحياة الزوجيـة، ورد أبى حينها: ربنـا يرزقك بواحدة زي أمك. ولسان حالي يردد أنها دعت لي ذات يوم أن يبعد عني أولاد الحرام ومن يومها لم أقابل أحدا! طمأنت أبى أن مع مرور الوقت سأكتشـف المراءة التي تسـتحق دفئ باطن يدي، وحب نظـرات عينـي لها وحروف كلـماتي الصادقة، ومن هنا اكتشـف أبى أن السـجن علمني الرومانسية وترك المأساة جانبا، ولم يعلم أن المأساة تحتوي على رومانسـية وتنتهي بشقاء البطل. موافقتي على الـزواج من باب زراعة الأمل وحصد حيـاة جديدة، أبتعد فيهـا عـن كل ما أحـاط بي.. هـروبي المعتاد من المشـاكل لم يكن مفيدًا لي فمرحبا بتلك الإشـعاعات المؤثـرة على خصوبة العقل

وهرمونات الأماني، فمرحبا بالصعوبات.. ختمت الحديث مع والـدي حتى أثبت للجميـع انى لم أتى لأنتقـم، فاقترحت عليه فكـرة اليوم العائلي، يوم يجمع فيه عائلتي بعائلة (فرج الحلواني) وبه نختتم مسلسـل الصراعات، وفيه نوضح بتصرفاتنا حسـن نيتنـا وبقاء المصالح واحدة.. لنسـبنا لهم. وأن يكـون هذا اليوم بعيدا عـن المنطقة، فاقترحت الذهاب لرحلة يوم واحد الى أحد الشـواطئ السـاحلية وفيه نسـتمتع بالهواء. تقبل أبى الفكرة مع استحواذ شعور الخوف بداخله، مرة أخرى وكأنه يحدث نفسه، رحلـة أخـرى ويوم أخـر ولا يعلم ما سـيحدث ومـا يخطط له (عادل) إلا الله.

ترك عمى والأحداث تصـارع بعضها البعض في زوايا عيناه ومـضى تـاركا لعمى خبر انه اسـتأذن مـن والـده ليذهب لفرج الحلـواني مقترحا تلك الفكرة التي بادرت خياله العميق.. حتى اقتراحـه بأحضارعلبـة شـوكولاتة جديدة من نوعهـا على زوار المنطقة، فالكل تقتصر زيارتهم بالبرتقال أو أحد الفاكهة رخيصة الثمن. وبالفعل أراد أن يدخل بيتهم تاركا علبة من الشوكولاتة لكن والده (أبو سـمير) طلب منه أن يحضرها له وبنفسـه وعند عودته من زيارة صديقه سوف يجدها وبالتالي سيذهب لفرج الحلواني.

****

حدثني أستاذ (عبده) قائلا:

– أتعلم يا صديقي، مذاق الظلم أشد مرارة من فنجان القهوة السادة الذي يتجرعه الشخص لأول مرة، أشد مرارة وظلام من تلك الليلة المليئة بالكآبة وسوء المنظر، اشد مرارة من طفل فقد أهله تائهًا.. اشد مرارة من أم تبحث عن طفلها الضائع، أشد مرارة من ذلك الذي ينهب وينهش في عظامنا ولحم أجسادنا وهو لا يحتاج لشيء، أشد مرارة من ذلك الذي يقتحم كل بناء بنيته في مدينة أحلامك ويريد أن يزيله في غمضة عين!

مرارة حديث أستاذ (عبده) تغرقه في بحور وما هو بماهر في السباحة، تحرقه بنار يزداد لهيبها وما هو بسريع الانطفاء، تقذفه عاليا ليقع منكسرا وما هو بلياقته الكاملة. استرسل حديثه الشيق وما هو بحديث، إنها لأحد أكبر الأحداث قيمة من وجهه نظري. أستاذ (عبده) مستعد دائما لإلقاء نفسه من أعلى ناطحات السحاب لكي يشعر بفائدة الشيء، وما كان ليحكي كل هذا وهو متأكد انه سيصل لأمر إيجابي. بدأ أستاذ (عبده) بالذهاب والعودة يمينا ويسارا ويسارا ويمينا في أرجاء الحجرة مع اعتبار أن التيار الكهربائي المنقطع عاد من نصف ساعة سابقة ولعله يتذكر شيء مهم. ويكمل أستاذ (عبده):

وفى يـوم رأيت من البلكونة ومن بعيد أحد شـباب الشـارع يقـف على سـطح أحد المنازل ويشـير براية حمـراء، بعدها رأيت (على الزناتي) يسرع ليختبئ ومن الواضح أن تلك هي إشارة الخطر!

توقـف أسـتاذ (عبـده) عـن الحديـث لبرهـة وأخـذ ينظر في سـاعته وتعجب! ثم قال:

السـاعة تقـترب مـن الثالثـة ونصف فجـرا والوقت لم يسـع لنحكـي الكثـير، لكننـا وبالتأكيـد سـنحاول سرقـة المتبقي منه لإسـعاد أنفسـنا ولاتقـاء شرورنـا، وللقـرب مـن أنفسـنا ومن حولنا، سـنسرق الوقت لنقضى على بوادر الندم ونشـعل حماس القلب، سـنسرق الوقت لنبني في أرواحنا الثقة الغائبة، سـنزرع في أعيننا الرؤية الصحيحة للأشـياء، وسنبتعد عن كل ما يسبب للنفس التواء.

أمامنـا نصـف سـاعة لنكمل الحديـث من دون بقيـة. أكمل عبده ما بدأه:

وبعدما رأيت (علي الزناتي) يختبئ عند رؤيته للإشارة الحمراء إذ فجأة بأمه تدعي له، بأن يدوم عليه دوام الستر، وأسأل نفسي وتسـتحوذ الحيرة على وعـي عقلي، كيف يسـترها الله عليه وهو بائع مخدرات يؤذي شـباب مثله، ولكنى لم أفقد رحمه قلبي التي

خلقني الله بها، ونظرت لموقف الأم هنا، فهي في كل وقت وحين وفى كل كرب وشدة، وفى كل فرح وسعادة تتواجد بمشاعرها الدافئة نحو أبنائها. أخذت الشرطة بالبحث عنه لكنه قد اختبأ وفص ملح وذاب. بعدها ذهبت وأعددت طائرتي المصنوعة من الخشب وبقايا الأكياس البلاستيك، وبعد أن انتهيت من صناعتها وصعدت لأعلى سطوح بيتنا لأطيِّرها، أخذت تبتعد شيئا فشيئا حتى أصبحت كالنجمة الغارقة في بحور السماء.

عشت طيلة عمري أحلم بركوب الطائرة والذهاب بعيدا ولم أنل السير معها حتى الآن. سمعت صراخ مفاجئ، فتركت طائرتي تطير وحدها ومن الأكيد سيُلقى حدفها في مكان بعيد ومن سيجدها لن يتعرف على صانعها أو حتى قائدها، ولن يجد صندوقها الأسود ليخرج حقيقة حدفها للنور. نزلت شقتنا لأجد شجار مدوي بين الشرطة وأبناء الزناتي، الشرطة قد ألقت القبض على (صبري الزناتي) الأخ الأوسط لعلي الزناتي ومن الأكيد أنها نجحت في القبض على كل إخواته إلا (على). (صبري) يعمل كهربائي ورفض توزيع الحشيش مع اخوه وأراد العيش وحده دون المساس بهذه الأشياء، متزوج ولديه طفلين، وبعد أسبوع من هذه الحادثة عاد منكسرا، ولعلهم اعتدوا عليه

بجميع الأساليب لكي يخبرهم عن مكان أخيه ولكنه رفض التحدث وأضرب عن الطعام.

****

أستاذ (عبده) بدأ التعب يحل على أحبال صوته، تحدث وكأنه جائع فضفضة، تحدث وكأنه يحرم من الإفصاح عما في دواخل نفسه:

يا الله، أيعيش الأنسان وبداخله كل هذا الكم الهائل من الأحداث ويتذكرها وتقسو عليه لحظات وتسعده لحظات ومازال الأمل بداخله، أعان الله شخصا يعيش متذكرًا ولا ينسى، يتألم ولا ينسى، عزيزا ولازال يشقى فرحًا ولازال حزينا، يبلى ويرضى، حامدا شاكرا ولا ينكر فضل الله عليه.

جلست في البلكونة. رأيت (عمي) قد دخل منزلنا وصعد، وعندما التقى بجدتي أخبرها أنه سيذهب لرحلة يوم واحد مع عائلة (أبو سمير) و(فرج الحلواني) وبينما جدتي تبدأ بالبحث عن سبب الذهاب؟ وكيف حدث ذلك؟ أفصح لها عمي وأخبرها عما حدث وذكر لها أن (عادل) قد ذهب بعلبة شوكولاتة أحضرها له والده ليبارك لعائلة الحلواني على زواج ابنتهم مع اقتراح هذه الرحلة ليعلنوا عن نيتهم الخالصة وبدايتهم صفحة جديدة. وفى صباح الغد سيذهبون وسيعودون في نفس اليوم،

والسؤال هنا هل كل هذا الحديث تصدقه جدتي أم لا؟ ونظرًا لكونها من أهم الباحثين ومن أهم الشخصيات التي تستنتج من الأحداث قالت لعمي: ربنا يسترها.

بعدها ذهبت للنوم وحلمت حلم غريب واستيقظت حينها باكي العينين، وأسرعت (أمي) لتعرف ما بي؟ فأخبرتها بما حدث ولكنها قالت:

- لا تخف هي تخاريف ما قبل الامتحانات.

ومن بساطة الحلم وصفته أمي بالتخاريف، حلمت أنه بعد انتقالنا من الشارع للمنطقة الجديدة رجل عجوز قابلني في الشارع وصفعني على وجهي وأخذ يصرخ في وجهي! أكملت نومي وما عاد فكري متعلق بشيءٍ سوى رحيلنا، وتسبب هذا القرار بحل مجلسي مع بلكونتنا المفضلة.

استيقظت باكرًا وذهبت للمدرسة، بالمناسبة.. سأظل في مدرستي كما هي ولن أغير مكان الدراسة، الشيء الوحيد الذي رفضوا تغييره لاكتمال مرحلة الدراسة فيه. كان يومًا شاقًا جدًا عند عودتي وسؤالي عن الرحلة التي ذهبوا لها الشارع، أبلغتني جدتي انهم عائدين في الطريق، وما مرت ساعة واحدة حتى وجدناهم قد عادوا بخير جميعًا. وبعد سماعي طرق الباب ذهبت

لأفتح، (عمي) قد وصل، ومـن غلاف وجهه الخارجي وبعيدا عن محتواه الداخلي يبدو بخير وأن الرحلة لا تشوبها شائبة.

بـدأ عمـى بقـص كل مـا حـدث حتـى الأكل والمشروبـات التـي تناولوها والضحك والمودة التـي تغلغلت بداخل الرحلة قلبي تحتويه السـعادة عندما أعلم بوقت سـعيد قد استحوذ على قلـب أحـد غيرى، ويعلم الله أن ما اشـتد كرب بي إلا وتذكرت نعمـه وفضله إلا وتذكرت أوقاتًا قد رزقني إياها بالسـعادة، إلا وتذكرت احتوائه لنفسي واطمئنانها. ويعلم الله أنى لم اسـتند في حياتي إلا على ذاته عزوجل.

أسـتاذ (عبده) بدأ باسـتيعاب ردود فعلي على تلك الأحداث التي أثارت بداخلي روح الشـفقة عليه وعلى تلك الشـخصيات التـي مـا هدمت إلا نفسـها ومـا أقامـت إلا الفسـاد في قلوبها، تركـت كل شيء حتـى أتوغل وأعيش ما عاشـه أسـتاذ (عبده) ولكني لم أسـتطع اسـتحضار ما يسـاعدني على الإحساس بكل تفاصيـل الحكايـة. وفى كل مـرة يبدأ حدث جديد أشـعر وكأني أستمع لحكاية أخرى، لوجع آخر سيحل به ويجلده في ذاكرته المريرة وبدأ يحدثني أستاذ (عبده):

مكاسب الدنيا كثيرة لكن أعمارها لا تتعدى بضعة أيام، الظلم

مهما امتد سيرد يوما، الخسارة لن تدوم طويلا، الابتلاءات فرج من الله ونعمة، والكثير منا يبحث عن تلك الأحلام الوردية التي تضعه موضع استقرار وهنا وسعادة، والعاقبة تبقى المفاجأة. أتعلم يا صديقي أن بعد سماعي خبر وصول الرحلة بخير وسلام وبعد أن انتهى عمي من قص سيناريو اليوم لجدتي عدت لبلكونتي ولازالت بقعتي وركني الذي يُحيي ضربات قلبي وسكينة روحي. أتعلم ماذا حدث؟

استوقف أستاذ (عبده) للحظات وبدأ يقص الأمر كما لو كان خدع أو رطمته على رأسه بآلة حادة. واسترسل:

صوت عربة الشرطة أصبح جزء من حياة شارعنا، اعتاد علينا واعتدنا على سماعه، هو أصبح نغمتنا المفضلة ونحن أصبحنا بالنسبة له تسليته عند الفراغ، وفجأة توقفت عربة الشرطة عند منزل (فرج الحلواني).. ماذا يحدث؟ وما المشكلة فإتيانهم بهذه الطريقة لأمر يبدو خطيرا!

انتظرت حتى أرى أمرًا واضحا به استنتج ماذا يحدث، فما رأيت غير (فرج الحلواني) وهو يصعد بداخل العربة وأخذوه سريعا ورحلوا! انقلب الشارع رأسا على عقب، صمت غريب أصاب الناس، لا يعرفون حتى السبب كي يأخذوا إجراءاتهم

ولا يعلمون حتى الى أين سيذهبون به، باب شقتنا أصيب بضربات مفاجأة كون أحدا ما يستعجلنا بفتحه، وجدته (عمي) ليسرع لجدتي ويخبرها بأن فرج الحلواني قبض عليه وعثروا على قطع حشيش داخل منزله!

جدتي استنتجت هذه الحرب التي ستدور من تاريخه وساعته، حرب عالمية ثالثة ليست بالأسلحة ولكنها بالشكوك والاتهامات، جدتي قالت:

- عادل عاد لينتقم!

عمي خالف رأيها وقال:

- لم يكن من الممكن. وكيف حدث ذلك؟! ومتى؟!

فأثار بداخلي روح الشكوك، فما أشار السهم إلا على (عادل). نزل (عمي) مسرعًا مرة أخرى ليستكشف ماذا سيحدث؟ ذهبت لبلكونتي لأتابع من بعيد من دون دراية كاملة بالأحداث الصاعدة، وجدت (عادل) يأتي من بعيد وهو يلتفت حوله مندهشا من حركات الناس وهمساتهم. صعد لمنزلهم وكنت محظوظًا، فشبابيك جميع الحجرات لديهم المطلة على بلكونتنا مفتوحة وبالتالي سأعلم ماذا سيحدث من تطورات.. انتظرت حتى أتى (عادل) الى حجرته ورأيته مسترخيا على سريره، فلم

أطيـل النظر حتى لا ألفت انتباهـه، وفجأة دخلت عليه والدته، وجهها شـاحب وتريد الحديث والتردد يسـيطر عـلى حركاتها، وهو يسألها:

- ماذا بكِ يا أمي؟

لكنها تنظر إليه نظرة شك، وتسأله:

- أتعرف ماذا يحدث؟

والآخر يرد:

- ماذا حدث؟!

وتقـص عليه النبأ العاجل وبه ينتفـض من على سريره وكأنه طعن بخنجر في ظهره وتأثر، وبدأت الأم ترمى وتلقي على عاتقه شـكوك الظن، وهـو ينكر إنكارا شـديدا. وترسـم حنانها عليه ليعـترف وما هو بمعـترف وما هو بفاعل. تركتـه أمه وخرجت ولاتزال الحيرة تصيبه وأخذ يسأل نفسه: من فعل ذلك؟! أسئلة والدتـه نحوه لخوفها عليه، لانفطار قلبها الذي لم يلتأم لما حدث سـابقا.. وبعـد فـترة ولازال الآخـر يجلس على كـرسي بجانب سريـره ولم يكن مسـتوعبا ما حدث، دخل عليـه (حلمي) وبدأ هو الآخر بزيادة الشـكوك حوله وإلقاء الكثير على عمود ظهره الفقري وسأله:

– لماذا فعلت ذلك يا (عادل)؟! ألم تفكر في حياة أخيك وأنها ستدمر؟ ألم تفكر في تطورات الأمر إذا حكم على فرج الحلواني بالسجن؟

الآخر لم يحرك ساكنًا ولم ينطق حتى بـ(لا). خرج (حلمي) وخيوط الإحباط تقتله، غرضه اختلف تماما عن غرض والدته، دوريات الشك بدأت واعتقد أنها لن تنتهي، سباق الحصول على معلومة مفيدة لم ولن ينتهي، وواصلوا الزحف نحو غرفة (عادل) ليدخل (سمير) عليه ويجلس بجانبه ويحدثه بنبرة فرح غير معتادة:

– أعلم جيدا أنك تريد الانتقام وأنا مثلك وأعلم عن شعورك عندما سمعت خبر القبض على (فرج).. لماذا لا تعلن انتصارك؟ ولماذا لا تعلن تمردك؟ ولماذا لا تخبر شارعنا أنك انتقمت منه ليكون عبرة وترفع رأسك لأعلى؟

(عادل) لم يفرح لخبر مثل هذا ولم ينتقم، ويرفض الحديث ولكن أرى من بعيد حيرته.. فمن فعل هذه الفعلة؟ ولازال لا يحرك ساكنا. خرج (سمير) من غرفة أخيه، وظل (عادل) جالس كما هو ينتظر خبر من ارتكب فعلة الإبلاغ ودس الحشيش؟! دخل الأب (أبو سمير) ليجلس بجانب ابنه (عادل) ساكنا

متيقنا وفى جعبته الكثير ليخبر (عادل) في لحظة فيها صدمت صدمة في فكرى أطاحت بقوانين الشك بأكملها، ليتحدث الأب أنه السبب في الإبلاغ والسبب في دس الحشيش لـ(فرج الحلواني)! وعندها نظر (عادل) لوالده وقال:

- لماذا فعلت ذلك يا أبى؟! أشكيت لك نار قلبي التي لازالت تحرقه؟ أتحملت عبء كوني مسجونا فأحببت الانتقام لي أم ماذا؟

حينها اعترف الأب لابنه واستحلفه ألا يخرج سرهم خارج هذه الجلسة لاحد، ولا يخبر أحد بما قيل، ولازال (عادل) مصدوما. وخرج الأب. وقتها زوجة (حلمي) شكت هي الأخرى في (عادل) انه أبلغ عن والدها وأنه سبب في هذه النكبة، فحدث ما استنتجه (حلمي)، طلبت الطلاق منه كون والدها قد تعرض للإيذاء، والحياة لم تعد مكتملة الاستقرار، استقبل حلمي الطلب وأخذ يفكر. ومر وقت ليس بطويل وليس ببعيد وحكم على (فرج الحلواني) وابنه بالسجن خمسة عشر عاما مع النفاذ، وقتها وبعد سماع الخبر اجتمع (أبو سمير) بعائلته وأبلغهم انه سبب في القبض على (الحلواني) وانه قد وضع له قطع الحشيش داخل علبة الشوكولاتة التي ذهب بها (عادل)

لزيارتهم قبل الرحلة، وانتظر حتى يعودون من الرحلة لكيلا يشك بهم أحد وأبلغ عنهم، فأتت الشرطة وعثرت على المخدرات.

مفاجأة مدوية لي عند سماعي ذلك ولهم ولك، وعلمت (شاهندا) زوجة حلمي بالاعتراف الذي أقر به (أبو سمير) فكانت تتنصت عليهم من وراء الباب عند اجتماعهم، وقتها أخذت ذهبها وطفلها وهربت هي وأخواتها وأمها ولم يستدل على مكانهم، وحزن حلمي حزنا شديدا. وأخذت والدته توجه له نصائح، كي لا يظل تائها في طريق الظلمات بمفرده، فبدأت تنذره إنذارات شديدة اللهجة، بأنه لابد عليه التركيز في مستقبله وأن زوجته تركته ذليلا ورحلت، وكما أخذ والده حق أخيه الذي أشفى صدورهم أخذت طفلك وكل ما أتيت به لها وأخذت قلبك ورحلت، ارجع إلى صوابك وعقلك والأيام دول.

وعلى الرغم من كل هذا ولا يزال العداء مستمر ولا يزال القصاص وارد وكلاهما يصنع الحيل للانتقام. مرت الأيام وكلما مرت اقترب موعد رحيلنا عن الشارع بتفاصيله، اشتقت إلى (جدي) والحديث معه اشتقت لصوته الباعث للطمأنينة والأمان. فى أحد المرات أخذ يحدثني عن ناس زمان وعن قيمتهم وأصولهم التي عاشوا عليها وعن تلك الأيام التي ضاع فيها كل

شيء فلا قيم شيدت ولا أصول تقام، ولعل جدي وجدتي من أواخر الذين يحملون الأصول على ظهورهم، ولا أتحدث عن الأصول التي تجعل الحياة تستمر دون أي عقبة أو مشكلة. ذكر لي جدي انه في مرة من المرات، يعبر الطريق وإذ بامرأة عجوز تريد العبور، ولكنها لن تستطيع لسرعة السيارات، فذهب لها ليساعدها وأخذ يوقف السيارات ويشير لها بيده حتى يهدئوا السرعة ليعبرا بسلام.. وبالفعل تخطى بها الطريق وفى النهاية دعت له بالخير.

أستاذ (عبده) يبحث عن الخير دائمًا وانحنائه للعواطف وتقديرها شيء يميزه، سقوط الأقنعة وتحولها يبدو دائما الحقيقة التي يصعب تفسيرها، فالخير لا يندمج أبدًا مع من يتلون بأكثر من لون، الحقيقة تستدعي أصحاب الخير الثابتون على عروشهم.. وقبل أن يكمل أستاذ(عبده) حديثه ألححت عليه أن يصف لي ردة فعل جده عندما رأى المرأة عاجزة عن عبور الطريق، فأجابني قائلا:

– أما عن جدي فغضب غضبا شديدا وحدثني أن العقبة في البشر، فكيف يروا كبار السن متعثرين ولا يقدمون لهم يد العون؟ وكأن أعينهم لا انتفاع بها وكأن أبصارهم عليها ستار

الجهل، تناسوا الأصول فنسوا القيم ومعها أفقدهم الله بصيرتهم.

أي صورة هذه وصفها جدي لي وهو على أعتاب الثمانين من عمره وكيف له هذه الذاكرة؟ من الواضح أن هذا الموقف لازال محفورا في ذاكرته الى الآن. جدي يحمل الكثير من المعاني القوية ويحمل من المواقف القوية التي قد يستفاد منها من يسمعه. قص عليَّ حكاية أخرى ليبين لي كيف السبيل الى الأصول، فحدثني قائلا:

– جدي لأبي رحمه الله كان يريد شرب الماء نظرا لسعاله الشديد فتحركت سريعا لأحضره، وجدي أثناء حكيه حضر له أيضا سعاله الشديد لكني لازلت في مكاني انتظر استكمال القصة التي يرويها عن جده هو الآخر: فقال لي مازحا: يا ابني هموت .. قوم هات ميَّه مش لسة بحكيلك عن جدي!

من الواضح أن اختلاف الزمن يجبرك على تغيير أصولك لتعيش مواكب مع عصرٍ كَثُرت فيه اختلافات معدومة القيمة، جيدة التأثير السلبي على قيم العقل. ذهبت الى سريري هذا اليوم واستلقيت على ظهري أنظر لسقف الحجرة وأفكر، هل عند مغادرتي إلى المنطقة الجديدة سأجد أصدقاء مثل هؤلاء الذي سأتركهم؟ أصدقائي هم أكثر الأشياء قيمة في حياتي، هم مرحلة التطور التي أثرت في وجدان رحلتي نحو النجاح، هم القطع

الثمينة التـي توضع في قوالب زجاجية لتحتفظ بها طيلة الزمن، هم الأشـياء التي إذا فُقِدَتْ منـك فَقدَتَ طريق الإخلاص، هم اليقين بعد الشـك، هم الحياة بعد موت وحدة النفس، هم قلعة الأمل التي تحارب رماح الفشـل، هم زينة الكون من بعد تعفن طبيعته الرائعـة، هم المحاربون عند قتال الشـيخوخة، هم السر الـذي يحفظ نفسـه بنفسـه، هـم إضاءة الكـون من بعـد انقطاع الكهرباء، هم الزاد عند الجوع، ومياه الارتواء عند العطش.

أخـذت أبحث وراء تلك الكلـمات العظيمة التي وصف بها أسـتاذ (عبده) أصدقـاءه، يا له من وصـف يخجلك ويعارضك كشخص ليس لديك إخلاص أو حتى نية لصحبة كريمة.

استكمل (عبده) قائلا:

لم اسـتوعب أن الحياة تتغير طيلـة الوقت، بل تتغير كل ثانية، لم اسـتوعب أن هنـاك مـن يرحل وهنـاك مثله يولـد من جديد، ولم اسـتوعب الفـراق إلا بعدما ذقت مرارتـه الصعبة، ووخزته القاتلة، لم أذقه ولم استوعبه ألا عند وفاه جدتي لأمي.

فقبـل وفـاه جـدتي بأيـام جمعتني بهـا مكالمـة هاتفيـة وكانت الأخـيرة، فيهـا حدثتنـي عن أمـي، وعـن احترامي لهـا، ونظرا لشـقاوة الصغر التي ولدنا بها، جلسـت ولأول مرة اسـتمع لها

بوعـي وتركيز ولم أتفوه بشيء واحد ولـو حتى حرف، حدثتني جدتي عن دراسـتي بأن أتفوق لأعيش مرفوع الرأس، ولو تعلم أن شـهادتي سـأبللها بمياه وأتجرعها ما كانـت نصحتني بذلك، وبغض النظر عـن نصيحتها الغالية إلا أنها كانت تعلم جيدا أن التعليم في مؤخرة الأشـياء التي يتوجب عليها التطور في زمننا، ولم أعلم أن هذه الكلمات وصيتها الأخيرة لي.

وبعد أن انتهيت من مكالمتها أغلقت التليفون ولم أخبر أمي بما حدثتني به جدتي، خصوصا أن صوتها يحمل إحساس الرحيل.

تؤلمنـي هـذه الكلـمات وبالتدريـج يشـعرني أسـتاذ (عبـده) بـما حـدث لي في الماضي، حيـث كل شيء يبدو مبهـما حتى تلك التـي كنـت ابحث عنها في سـطور الحيـاة المتداخلـة، تلك التي كنـت أحبها ولم أصارحها يوما بشـوقي لها. يوم أن اتخذت قرار الاعتراف واجهتها وجلسـت أحدق في رموش عينيها، شعرت بإحسـاس الرحيـل يسـتحوذ عـلى أنفاسـها وقـد كان. رحلت وتركتني وأخذت معها كل الشوق وكل الحب وكل الإخلاص وكل قلبـي. لم ولـن أعيـش كثيرا في هذه الكلـمات حيث لاحظ عليَّ أسـتاذ (عبده) أنى قد تشـتتُ وتركت حديثه وذهبت بعيدا وزعمت انى انتبه له ولكنى كنت في عالما آخر من الإحساس،

واستكمل حديثه:

صعب جدا أن يوصيك إنسان بشيء يتعلق برضا الأم والأب ومن الصعب أن تتراجع عن وعد وعدته، ومن الصعب ألا تطيع من يأتيك برسالة فيها ظلال نستظل به في محنة، وعلى الإنسان عندما يخطيء أن يتراجع ويعترف بالخطأ أيًّا كان نوعه. لازالت رحلة اكتشاف الشارع مستمرة من خلال بلكونتي المفضلة، ولازالت رحلة ظهور الحقيقة بوجهها القبيح مستحوذة على المشهد، ولازلتُ أحتضر بداخلي كلما تذكرت أن يوما من أيام هذا الشارع أفضل عندي من تلك التي نعيشها من غير امأن. وأثناء نظري من البلكونة، ظهر فجأة (عادل توتو) الشقيق الأصغر لـ(رأفت الحلاق) الذي اشترك في جريمة القتل مع (زلعوكة) ومن الأكيد أن هناك خبر سار جدا يزفه لزوجة أخيه، علمت بعد ذلك أن السلطات سمحت لهم بزيارة (رأفت) يوم في الأسبوع، خبر سار لبناته الثلاثة، المشكلة انهم سيروه في زي غير زيه الخاص، رحمهم الله من هذا المشهد بعد أن كذبت أمهم عليهم وهي ذاهبة للزيارة وقالت لهم إنها ذاهبة لإحضار الطعام.

ثلاث فتيات حرموا من حنان والدهم لجشعة وطمعه، وأم

لا حول لها ولا قوة، ثلاث فتيات لم يبلغ عمرهم الإدراك الذي يجعلهم يعيشون حياة صامتة أمام الواقع. أي طمع هذا الذي أطاح بصاحبه بعيدا عن الضفة الأخرى من الجحيم، فمن يصنع بيده غير الذي يصنع بعقله ورأفت ظلم نفسه وعائلته بصناعته اليدوية التي ارتكبها هو والآخرين من دون وعي. الصراعات لن تنتهي (مصاصة) ابن عم (طالب) لازال يفكر في ميراث والده وهو لايزال على قيد الحياة، فاختفاء الأصول يفعل أكثر من ذلك، وكما ذكر جدي هي علامة من علامات ضياع الخير بين الناس وعلامة من علامات اختفاء الأخلاق قسريا وعلامة من علامات وفاة الروح إكلينيكيا، وعلامة من علامات اتساع حلقة الخيانة وعلامة من علامات افتقاد الصواب وعلامة من علامات فقدان الحس مع الشعور.

من الواضح أن أستاذ (عبده) في الخواتيم، يلتقط أنفاسه شيئا فشيئا، لاحظت انه أرهق من الحكي ولاحظت أنه لم يظهر حتى سقمه الذي يصاب به، فتكون له حجة لينهي الحديث، اندماجه وانخراطه في سطور القصة جعلته شخص آخر، شاب كما لو كان يجرى سريعا ولا يمل، وأكمل حديثه:

سأفتقد الإحساس بالمكان والإحساس بالحب الذي كان

أهل الشارع يحملونه لعائلتي، وحدنا كنا نعيش بأسلوب مختلف وبطريقة أخرى عن غيرنا، وبلون آخر غير المعتاد، كذلك كنا نوضع فوق الرأس ولا أحد يهمس بكلمة واحدة علينا، الجميع يعرفنا فتعارفنا بالاختلاف الجيد والكلمة الواحدة والخير والأصول والود، وما انتهى الود حتى يومنا هذا يا صديقي.

بدأ (أبى) بإحضار عربات لنقل الأثاث، ومع كل عربة أحضرها تحتضر روحي ويحتضر كياني، ويحتضر عشقي ويحتضر حلمي وتحتضر جميع الأساليب المعبرة عن هذه اللحظة، فأبي لن ينقل أثاث المنزل فقط، بل سينقل طفولتي وعقلي، سينقل عمرا ظل يحب الشارع، سينقل فكرا تربى على الخير والشجاعة.. سينقل دم اختلط بالمغامرات لآخر جديد سينقل روح غلب عليها الاستقرار الى أخرى مشتتة، ولا أعلم تمام العلم ماذا سيصنع (أبي) بمستقبلي بعد ذلك؟

****

أستاذ (عبده) بدأت دموعه بالهطول، وأخذ يكتم صوت أنينه ولأول مرة وكأن شيء فقد منه. صعبة تلك الدموع للماضي وإن كان لا يساوي شيء إلا أن الشخص المتذكر هو الوحيد الذي يصاب بمرارة الفقد، لا أعلم لماذا يعيش، ولا يزال (عبده) في

تلك اللحظات ومن الأكيد أن هناك أمرًا ما يصعب فهمه إلا هو فقط. مسح قطرات دموعه الأخيرة، وأخذ يكمل حديثه معي:

أخذت أحدث السور وكأنه صديقي وأودع بلكونتي كأنها قطعة من قلبي: "سأودعك يا صديقي، لم أجد من يتحملني غيرك ولم أجد من يسندني غيرك ولم أجد ذكريات مع أحد غيرك، سنفترق طيلة حياتنا ومن الأكيد أن هناك لحظات متفرقة ستجمعنا.. والله أعلم، سأظل طيلة حياتي أتذكرك، ستظل أنت وحبيبتي داخل قلبي، حبيبتي سأتركها وحيدة، كذلك أنت ولم يرعاك أحد".

وضعت رأسي على السور كأني نائم على وسادتي، وأغمضت عيني وبدأت بجمع كل الأحزان التي ملأت أرجاء المكان، جمعت كل ما تشتت من أفكار كنت أريد تحقيقها هنا ولم يسعني الوقت. اتجهت لكل شيء أحبه حتى أودعه، إلى غرفتي إلى جدران السلم، اتجهت لجدتي لأتنفس في أحضانها، ولو أعلم أن الدنيا ستتغير لحظة، ما جعلت قلبي متعلقًا بكل هذه الأشياء، ونزلت بأخر قطعة من الأثاث، وضعتها على عربة النقل، أمرني والدي بالركوب والرحيل مع العربة، لأسأل (أبي):

- هل سنعود ثانية؟

ليجيبني بالنفي المؤكد:

- لا سنذهب إلى بيتنا الجديد.

لم يعلم أبى أنني حزين، حتما سيعلم وسيلاحظ عند وصولنا ولا أنتظر منه شيء غير ذكر سبب الرحيل. تحركت العربة شيئا فشيئا، ودعت بنظري بقالة (أم عفاف) ومحل (رأفت الحلاق) والمسجد والأطفال الذين يلعبون في الشارع، ودعت لعب الكرة، ودعت (أم عباس) وهي تلقى بماء غسيلها، ودعت يافطة الشارع. اقتربت العربة من الخروج من الشارع وابتلع الشارع بيتنا حتى لم يعد ظاهرا لكي أنظر إليه. مالت العربة يسارا لتخرج على الطريق الرئيسي، انتهى الأمر حينها ولابد أن يدرك عقلي أنه لم يعد هناك بيني وبين الشارع لقاءات أخرى، إلا بعد فترة من الزمن.

كل ما تفرَّق منك سيُجمع من جديد بأذن الله، يوسف فقده والده يعقوب وجمع بينهم الله، بدون الثقة بالله سنعيش أمواتًا وسنحيا دون إحساس.

لاحظت من حديث أستاذ (عبده) أن هناك حبيبة تسكن قلبه، فتاة تتراقص في أركان شريان دمه، فتاة استحوذت على

عقلـه فهي حبه الأول. نضاله وحزنـه واضح أنه من قلبه، ومن أجل حبهم العفيف، حب الخامسـة عشر. بينما تذكر شيء وأراد أن يحدثني فيه قبل أن ينسى. واسترسل:

وأمـا عـن حبيبتـي التـي تركتها، فتركت لها رسـالة بسـطور مختصرة واستنسـخت منها واحدة لتصبح معي ومعها مثل التي سـبقتها، تركـت لها ما فاض قلبي من إحسـاس وما رضي عقلي مـن حب وبعد أن تزوجـت تركت لها الرسـالة في يوم الأربعاء وهو موعدها الأسبوعي لزيارتها لعائلتها، لأكتب لها: "لا تخافي ولا تحزني حتما سـأعود، والود بيننا لم ينقطع والشوق نحن أهل له، ولو بإمكاني البقاء لاحتضنت عيناك الجنان، سـأعود لأجمع سـبابتي بسـبابتك وإبهامي بإبهامك وأصابعي بحنانك، وتعرق يدي بمسـك أزهارك حبيبتي تذكريني إن رحلت وتذكريني إن ضاق الدهر بنا، سـتبقين معي في كل شيء، أعدك ووعد المحب كميثاق الحياة".

ومن يومها ومازالت في قلبي لم تغادر، حتى وإن كانت لنزهة مازلـت أعيش عـلى ذكراها فهي خـير الذكرى وخـير التذكرة، بحثـت عنهـا ولم أجدها حتى الآن.. وبعدما تركت لها الرسـالة

على باب شـقتهم ولم أدري هـل هي التي حصلت عليها أم أحد مـن عائلتها، فقلبـي يحدثني أنه وصل لها وطبـع في قلبها. وعلى الرغم من جرائم الشارع وسوء الشارع وطيبين الشارع إلا أننى أحـن إلى الذكريـات دائما، لم أثق في أحد لدرجـة أن أجلس معه قرابة السـاعتين لأقص عليه تفاصيل حياتي إلا أنت يا صديقي. أثـق بـك واثـق أنك ستسـتوعب كل ما أقـول، أثق بـك لدرجة التصديق على كل شيء سأبوح به لك.

ملأت فـراغ حياتي لليلة سـأظل أتذكرها وبالتالي سـأضعها موضع يليق بها، أتعلم يا صديقي أن تلك الليلة المليئة بالضباب وشـديدة الـبرودة هي أشـد حـرارة من ليـالي الصيف في شـهر أغسـطس لقصصهـا وتكوينهـا العميـق؟ اعشـق ليالي الشـتاء ومـا بها مـن صفو وسـكون، ليلتنا مميزة بكل ما فيها من شـجن وأحيـاء ذكريـات في العقـول، أتحسـس كلماتي كي يصـل إليك الفهم الصحيح للجمل، أتحسس الكلمات ليصل إليك شعوري وقتهـا، أتحسـس الكلـمات ليولـد في نفـسي طفلا جديـدا يحمل ملامح فقدنا معناها.

أحدثـك وكلى يسـمعني، أحدثـك وضمـيري يمنعنـي أن

أخفى شيئًا قد يطرب مسامعك، صديقي العزيز لا تخجل يومًا إن أحببت أن تعترف، ولا تخجل يومًا أن تبحث عن الحقيقة وملاذها الآمن، لا تخجل إذا تركت الجميع حولك واستثنيت واحدة فقط أردت البقاء معها والدفن بجانبها، لا تيأس إذا أكملت المشوار وحدك والجميع من حولك قد خذلوك، لا تيأس إذا خانتك اختياراتك، ولا تيأس إذا تشتت أمرك ولم تجد الدليل، مُر مميزا ولا تكن كالذين مروا وعبروا دون جدوى، اصنع أشياءً تبقى لك ولا تُبقي عليك.

سار أستاذ (عبده) إلى النتيجة الورقية المعلقة على الحائط ليزيل منها ورقة اليوم، وقف أمامها وابتسم ثم أزال الورقة، واسترسل:

يوما مميزا قد أضيفه إلى تواريخ حياتي التي أعتز بها، وبالطبع ستضيفه يا صديقي في حقيبة تواريخك، أنظر ما بداخل الورقة فهي مجرد أرقام وإحصائيات، لكنك أنت من تصنع لتلك الورقة اهتمام، أنت من تصنع لمشوارك الأشياء التي تتكئ عليها يوم وقوعك في حفرة الإحباط ويأس الشيب وهزل البدن.

فكِّر جيدًا واستوعب دفء هذه الليلة وبردها القارص،

ولا تنسى نصيبك من حنانها وسكونها، عدني يا صديقي أنني كما ذكرت لك كل تفاصيل عمري، أن تذكر كل تفاصيل تلك الليلة بكل ما فيها وما تحويه من روائح من الزمن الجميل، عدني أن تذكر دائمًا وتقص على الجميع.. ليلة..

ونظر إلى ورقة النتيجة التي بيده، وأكمل:

ليلة ١٤ طوبة ..

تمت بحمد الله

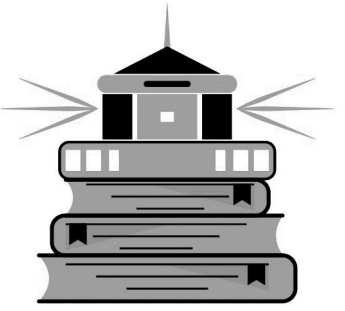

منشورات الفنار

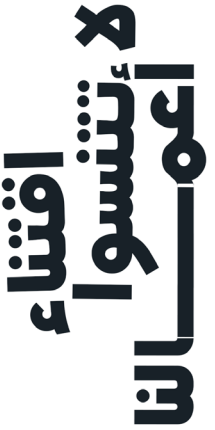

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزَّاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com